



لمفضلة الدكتور
محمد خليل هراس

كان ما ينتج عنها من العمل أو السلوك سليماً مستقيماً وكان كذلك أخلاقياً فاضلاً .

وبالعكس : كلما كانت الفكرة سقيمة منحرفة موهلة في الوهم مغرقة في الضلال كلما نتج عنها سيء السلوك وفاسد الأعمال .

فالسلوك والعمل يتبعان العقيدة كما يتبع النتيجة المقدمة أو كما يتبع الفرع الأصل . وهل يمكن أن يستقيم التابع دون استقامة المتبوع إن الوجودي مثلاً وهو يؤمن بحق الإنسان في الانطلاق وراء غرائزه وشهواته دون قيد يقيد حركته أو يحده من تصرفه لا يمكن أن يكون سلوكه إلا تمرغاً في الوحل وتلطخاً بالأقذار . وإلا سلسلة متصلة الحلقات من الأعمال الدينية والتصرفات القادرة الثيمة

إن إصلاح العقيدة وتطهيرها بما ران عليها من الفساد والأضرار الدخيلة وإزالة ما لحقها من التواء وتعقيد والرجوع بها إلى بساطتها الأولى قبل أن تتدخل فيها الآراء وتتنازعها الأهواء يجب أن يكون هو القاعدة الرئيسية التي ترتكز عليها كل دعوات الإصلاح . إذ بدونها لا يمكن أن يستقيم عمل أو يصلح سلوك .

إن من المعلوم بالبديهة أن كل عمل أو تصرف بدني لابد أن تسبقه فكرة تكوين هي الباعث على إرادته والمحرك لتحصيله وإنجازه .

وأنه كلما كانت الفكرة سليمة واعية

وإن المادى الملحد الفى لا يؤمن بالله
ولا باليوم الآخر ولا يقر برسالات السماء
ولا يعترف بوجود الروح الباقية الخالدة ولا
يؤمن إلا بهذا الجسد الفانى لا يمكن أن يكون
سلوكه إلا محصوراً فى شهوته الدنيا وغرائزه
البهيمية فهو لا يسعى فى تكميل نفسه بالمعاني
الشريفة والمبادئ الفاضلة لأنه لا يؤمن بها
ولا يقر بوجودها .

وإذا قرر أن العقيدة أصل العمل
ومبدؤه وأنها له كالطاقة للألة فلا بد لنا إذا
أردنا بناء مجتمع فاضل نظيف تعود العدالة
وتحكمه الفضيلة وتحقق منه الجريمة وتظهر
العلمانية ويتعاون أفرادها على كل ما فيه
صلاح وخير فلا بد من تأسيسه على عقيدة
صحيحة تكون هى الدعامات لذلك البناء ، والعقيدة
السليمة ليست ضرورية لبناء المجتمع فقط
بل هى ضرورية أيضاً لبقائه سليماً قوياً مترابطاً
لا تزعه الكوارث ولا تنال منه المحن ولا
تفسده المفريات والفتن ولا تفت فى عضده
العقبات والمعوقات ، وإنه مما لا مرأى فيه أن
الإسلام العظيم منهج ربانى متكامل يقوم
شرائعه وأحكامه على قاعدة عريضة من
التصورات والعقائد الإيمانية فهى منها بمنزلة
قطبي الرخا . تدور كلها حولها ، وترجع فى
مسيرتها إليها ولا يمكن أن يستقيم منها حكم

أو تشريع إلا إذا كان مؤسساً على تلك
القاعدة الإيمانية ، فهى التى تعطيه صفة الإلزام ،
وتحمله واجب الطاعة والاحترام ، لهذا كان
الإيمان بالله وتوحيده أول ما تدهو إليه
الرسول عليهم الصلاة والسلام ، ولقد مكث
نبينا صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر
عاماً لا م له إلا تأسيس العقيدة ، والدعوة
إليها وإرسائها فى قلوب أصحابه .

فلما هاجر إلى المدينة وبدأت آيات
التشريع والأحكام تنزل متتابعة وجدت
القلوب المؤمنة مستعدة لتقبلها والإذعان لها .
ولكن كيف يتم إصلاح العقيدة ؟

إن هذا الإصلاح المنشود لا يمكن أن
يتم إلا بإزالة هذا الركام المائل من التصورات
الفاصلة الجاثم على صدر العقيدة ، وإلا إذا
ظهرت العقول من تلك الرواسب الفضة التى
خلفها علماء الجدل وأورثوها للأجيال من
بعدهم وصنموها كتبهم التى لا تزال تدرس
فى معاهد المسلمين ومدارسهم فصرفتهم عن
عقيدة الكتاب والسنة .

إنه لكى يتم هذا الإصلاح المنشود لابد
من العودة إلى ما كان عليه الصدر الأول من
الصحابة والتابعين ، وأئمة الهدى من بعدهم
فهم الذين اتبعوا ولم يتبدعوا ، وهم الذين
أخذوا عقائدهم من الكتاب والسنة رأساً

ولم يرجعوا في شيء منها إلى رأي سقيم أو
جدل عقيم .

وهم الذين لم يتلاعبوا بالنصوص
بالتأويل والتحريف ، بل أخذوا بما دلت
عليه من معان مع التسليم لله فيما وراء ذلك
من الحقائق والكيفيات التي لا سبيل للعقول
إلى معرفتها .

إن العقائد الإيمانية موجودة بمسائلها
ودلائلها في القرآن الكريم والسنة المطهرة
لأن الله عز وجل إنما أنزل القرآن ليعلمنا
الإيمان وأنزل السنة للتوضيح والبيان ، ففي
الكتاب والسنة الكفاية والشفاء ، ومن لم
يستغن بهما فلا أغناها الله ، إن الله عز وجل لم
يكننا في معرفته وتوحيده وغير ذلك من
العقائد التي هي أصل الدين ، وأساس اليقين ،
إلى قياس العقل ونظرة ، وجدله وسفسطته ،
فإن هذه أمور غيبية لا سبيل إلى إدراكها
بالعقل وحده بل لا تؤخذ إلا من الوحي
المعصوم ، ولا وظيفة للعقل فيها إلا أن يفهم
فقط ما دلت عليه النصوص ، وليس له أن
يتسكّر من عنده شيئاً .

ولهذا لما عول المتكلمون والفلاسفة
على عقولهم وحدها ، ونبذوا النصوص
وراهم ظهرياً ضلوا ضلالاً بعيداً وظهر في
حججهم التهاق والاضطراب .

لقد كانت العقيدة الإسلامية قبل بزوغ
الخلافة ، وظهور الفرق والمقالات ، تنسم
بالبساطة والوضوح في قوة وجلالة . ولهذا
كان يدرکها كل الناس على تفاوت ما بينهم
في درجات الذكاء والمعرفة . وكان يستوى
فيها البدوي راعي الشاه مع أساطين العلم
وجهابذته .

فلما جاء هؤلاء المتكلمون المتنازعون
أزالوها عن بساطتها حين أقحموا العقول
في ميدانها ولم يكتفوا فيها بما جاءت به
النصوص الصريحة ، لقد جنى هؤلاء الجدليون
على العقيدة حين أخضعوها لسلطان عقولهم
وأزلوها إلى معترك أفهامهم . فأنزلوها من
علياء قداستها إلى ميدان الجدل الكريه ،
وصاروا يلعبون بها كما يلعب الأطفال
بالكرة حتى أزالوا تأثيرها على النفوس ،
وجلاها في القلوب .

من أجل هذا أهما الإخوة كان اختيارنا
لمذهب السلف أساساً لدعوتنا ، وقاعدة
لإيماننا لأنه المذهب الذي يقوم على أعمال
النصوص واحترامها حين تقوم المذاهب
الأخرى على تعطيلها وإعمالها .

لقد اخترنا مذهب السلف لأنه المذهب
الوسط الذي لا يمنح أبداً لا إلى إفراط
ولا تفريط .

فهو في باب الصفات والأسماء وسط بين إفراط المشبهة الذين غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه ، وبين تفريط المعطلة الذين غلوا في التنزيه ، حتى وقعوا في التعطيل .

وهم كذلك وسط في باب الإيمان بين غلو الخوارج والمعتزلة الذين أخرجوا مرتكب الكبيرة من دائرة الإيمان . وبين تساهل المرجئة الذين يقولون لا تضر مع الإيمان معصية .

وهم في باب القدر وسط بين المجبرة الذين غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا قدرة العبد على فعله ، وبين القدرية الذين جعلوا العبد خائفاً لفعله ، وهكذا في كل باب من أبواب العقيدة لا تجد مذهب السلف إلا وسطاً بين طرفين ، وحقاً بين باطلين .

ومن أجل هذا أيها الإخوة يجب أن نعمل جاهدين على إحياء مذهب سلفنا الصالح ، وندعو إليه بكل ما نملك ، ونأخذ به أمتنا إيماناً منا بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

وإيماناً منا كذلك بأن هذه الأمة لو عادت إلى عقيدتها الأولى في بساطتها وقوتها وأسست عليها كل أعمالها وسلوكها في الحياة فإنها لا تغلب أبداً وسيعود إليها مجدها الغابر وكرامتها السلية ، فإن الله عز وجل

يقول : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، إننا لعلّ يقين من أن العقيدة الصحيحة هي الأساس الأول لكل إصلاح وأن معظم الانحرافات في السلوك والأعمال التي نعاني منها الآن ليست إلا نتاجاً حتمياً لفساد الاعتقاد وثمره من ثمراته . فإن شجرة الجنظل لا تثمر إلا الثمر المر السكريه ، وكل إناء ينضح بما فيه .

لا يجوز أيها الأخوة أن تنتظر من عقائد فاسدة ملتوية ، أن تثمر لنا أعمالاً صالحة وأخلاقاً كريمة فإن الظل لا يستقيم طالما العود أعوج ، إن العقيدة هي عمل القلب والقلب كما نعلم هو أمير البدن ، فإذا صلح القلب بالعقيدة الصحيحة والمعاني الكريمة استقامت له كل الجوارح والأعضاء فصدر عنها كل سلوك فاضل وكل عمل شريف . وصدق الرسول الكريم حيث يقول (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) .

إن العقيدة هي الطاقة الخرابية التي تدير الجهاز الإنساني كله فإذا كانت طاقة معتدلة سار الجهاز كله في أمان وانسجام أما إذا طغت وزادت عن الحد أحرقت الجهاز وكذلك إذا خبت وضعفت توقفت الجهاز . إن الناس يلوموننا على اهتمامنا

منطق عجيب

بقلم : فضيلة الدكتور محمد خليل هراس

رحمه الله

يحاول أنصار المرأة الذين يدلونها بغرور ، ويزينون لها الخروج على ما حده لها الدين ، واختصتها به الفطرة ، أن يتعسفوا الحجج والمبررات لدعواهم الكاذبة في المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة • وهم في سبيل ذلك يوردون ألوانا من المنطق غاية في السخف ، ويظنون أنهم بها قد نصرروا قضية المرأة ، وحولوها من قضية جائرة ظالمة الى قضية شرعية مدعومة بالحجج والبراهين •

كنت أقرأ ذات يوم في ملحق لصحيفة صباحية ، فلفت نظري في الصفحة النسائية عنوان بالبنط الكبير لكلمة صغيرة وضعت في اطار مربع ، وكان هذا العنوان هو كلمة (استفتاء) ، وقرأت ما تحته ، فدهشت ، إذ رأيت الكلام المعنون له لا يطابق العنوان ، ووجدت السيد المستفتي قد انقلب مفتيا ، وألفيت نفسى فجأة أمام قياس منطقى في غاية الغرابة ، يحاول صاحبه أن يفرضه فرضا على القارىء . رغم ما في مقدماته من فساد ومغالطة • يقول السيد صاحب الاستفتاء أو بالاحرى صاحب الفتوى : أليس من المتفق عليه أن الاسلام دين الفطرة ؟ وهل تكون الفطرة شيئا غير الحياة ، وحينئذ يجب أن تكون أحكام الاسلام بحيث تتلاءم مع كل تطور تنتهى اليه الحياة ، فاذا اقتضت سنة التطور في هذا العصر أن تتساوى المرأة بالرجل في كل شيء ، فينبغى أن لا يكون في الاسلام ما يمنع من اقرار هذه المساواة ، والا لم يكن هو صالحا للتطور ، ولم يكن هو دين الفطرة •

هذا هو القياس الاعرج الذى ساقه الكاتب ، ليثبت به تلك القضية الخاسرة ، وليلبسها في زعمه ثوبا من الدين ، فانه هو وأمثاله من أنصار تلك المساواة المزعومة يتوهمون أن الدين وحده هو الذى يقف عقبة دون

تحقيقها ، ومن هنا كان مهمهم الاول أن يجدوا لها سنداً من الدين ،
وهيئات ، فان الدين قد أصدر في هذه القضية حكمه الذى لا يرد ، حين
قال فى الكتاب الكريم : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم
على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم) ، وحين منع النساء من الولاية
العمامة ، وأخبر أنهم أنقص عقلاً وديناً من الرجال ، وجعل شهادتها بنصف
شهادته . على أنهم لو نظروا الى المسألة من أية ناحية . وبأى اعتبار
آخر غير الدين ، كالمصلحة العامة . أو الحفاظ على كيان الأسرة .
أو الوقاية من خطر التحلل الذى يسببه اختلاط المرأة بالرجل . لوجدوا
أن تلك المساواة التى ينادون بها حماقة من حماقات ذلك العصر . الذى
يريد أن يتعدى كل حد . ويتفلسف من كل قيد . ويهدم كل مبادئ الدين
والاخلاق .

ولنرجع الى مناقشة تلك المقدمات التى ساقها الكاتب لنكتشف عما
فيها من زيف ومغالطة . ونحن نوافقه فى قوله ان الاسلام دين الفطرة ،
فان ذلك ما لا يشك فيه مسلم . بل جميع العقلاء يقرون للاسلام بهذه
الميزة . فليس فى الاسلام — عقائده وأحكامه — ما يجافى الفطرة
الصحيحة ، أو يتنافى مع النواميس الكونية . ولكن قوله بعد ذلك ان
الفطرة هى الحياة . فلسنا نعرف ماذا يتقصد بالحياة . فان الذين مسخوا
الفطرة وشوهوا جمالها هم أيضا أحياء . فهل يمكن أن يقال انهم على
الفطرة السليمة التى خلقوا عليها يوم خلقوا . والتى جاء الدين باقرارها؟
لا . بل الذى يسمى فطرة هى الحياة المستقيمة التى لا انحراف فيها
ولا فساد . ونحن حينما نقول ان الاسلام دين الفطرة . لا نريد الحياة
بمعناها العام ، والا لجاز أن نقول ان الناس كلهم على الفطرة لانهم
جميعاً أحياء . ولعل هذا الغلط فى تفسير الفطرة فى ذهن الكاتب هو الذى
أوقعه فى الغلط . حين طالب أن تتطور أحكام الاسلام وشرائعه تبعاً لتطور
الحياة ومقتضيات المدنية . وكان الاجدر به ككاتب مسلم أن يعكس

المسألة . فيجعل تطور الحياة خاضعا لاحكام الاسلام وشرائعه . حتى يكون تطورا الى الكمال والخير .

وما رأى الكاتب الفاضل اذا كانت مدنية هذا العصر قد اقتضت خروج النساء كاسيات عاريات . واختلاطن بالرجال فى النوادى والمجتمعات . ومزاحمتن لهم فى كل ميدان من ميادين الحياة ؟ بل اقتضت رفقتن مع الرجال فى الحفلات . هل يحصر مع ذلك على أنه يجب أن يكون فى الاسلام ما يبرر هذه الحالات والا لم يكن دين الفطرة ؟ ان هذه الفطرة التى يريد أن يتخذ منها حجة على وجوب مساواة المرأة للرجل قد شهدت بعكس ذلك تماما . فليس الفطرة أن المرأة تشبه الرجل . بل قد جعل الله لها تكوينا خاصا تهيأت به لأمور ووظائف ليست من شأن الرجال . مثل الحمل والولادة والرضاع والحضانة وغير ذلك من الأمور التى لو خرجت عنها لم تكن على الفطرة . ولم تكن هى ذلك النوع الذى من شأنه كذا وكذا .

فيا أنصار المرأة تتعبدوا أنفسكم فى التماس الحجج لنظريتكم الهدامة المخربة . واعلموا أنكم مهما جهدتم فلن ترجعوا بطائل . وما حججكم الا كسراب بقيعة تغرون به النساء . يحسبونه ماء وليس بماء ، حتى اذا وردنه وجدن عنده الهلكة والشقاء . فلا تغيروا خلق الله ، واحترموا سننه التى وضعها لكم . فان فى ذلك ما يضمن لكم الحياة الطيبة التى وعدها الله عباده الصالحين .

أخى القارئ :

لا تود مجلة التوحيد أن يقصر النشر فيها لكبار الكتاب وحدهم ، انما ترجو فى نفس الوقت أن تكون منبرا لكل من يستطيع أن يساهم بالكتابة فيها ، طالما كانت كتاباته بالمستوى اللائق . ما رأيك ؟ .

مجلة التوحيد

الرحمن على العرش استوى

بقلم : د. محمد خليل هراس - رحمه الله

بين يدي المقال

في أوائل القرن الثاني من الهجرة ظهر رواد المذاهب المنحرفة في فهم العقيدة الإسلامية التي خالفت أهل السنة والجماعة متأثرة بما نقل إليها من فلسفات اليونان وسائر أهل الكفر فتكون منها منهجان منحرفان :

الأول : مذهب التأويل الذي يقول به المعتزلة حيث يجعلون العقل حاكما على نصوص الشرع فيوجبون تأويل نصوص الشرع لتوافق — كما يزعمون — العقل .

ولست ادري أى عقل يحاكم النص الشرعى والعقول تتفاوت بل ما فائدة الوحي اذا كان العقل هو الحاكم عليه .

الثانى : مذهب التشبيه وهم الذين بالغوا في اثبات الصفات حتى شبهوا الخالق سبحانه بال مخلوق .

ثم ظهر مذهب ثالث تزعمه (عبد الله بن كلاب) حاول التوفيق بين مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة . والى هذا المذهب ينتسب الأشاعرة اليوم ذلك لأن الأشعرى كان في آخر حياته على مذهب أهل السنة والجماعة وله في ذلك كتاب الانابة ومقالات الاسلاميين .

ونحن ننقل هنا مقالا جيدا للشيخ الجليل محمد خليل هراس رحمه الله حول مذهب أهل السنة والجماعة في الاستواء . يقول الشيخ :

اعلم أن أهل الاثبات بحمد الله عندهم من هذه النقول ما يملأ مجلدات ، وهم لا ينقلون الا عن كل امام ثقة في علمه ودينه من سلف الأمة ، الذين هم أكملها علما وايمانا ، وأبرها قلوبا وأقلها تكلفا وأهداها سبيلا .

واليك أيها القارئ طائفة من الحجج والبيانات التي يعتمد عليها أهل الحق والاثبات في هذا الباب لكي تدرك الفرق بين ما يسوقه المعطلة من شبه واهية ساقطة ، وبين ما يستند اليه أهل الحق من أدلة ناصعة قاطعة •



فمن الكتاب العزيز نسوق هذه الآيات البينات التي لا تقبل جدلا ولا تحتل تأويلا الا عند من في قلوبهم زيغ ، ممن يصرفونها عن معانيها المفهومة منها ، الى مالا تحتمله من المعاني الفاسدة ، جريا وراء أهوائهم ، فيحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون على الله بغير علم •

١ - أخبر الله عز وجل في سبعة مواضع من كتابه ، أنه استوى على العرش ، ولا معنى لذلك أبدا الا علوه وارتفاعه عليه ، كما فسره بذلك مجاهد وأبو العالية وغيرهما من أئمة التفسير ، كما رواه عنهم الامام البخاري في صحيحه عند رده على الجهمية والمعطلة • وكل من حاول صرف هذه الألفاظ عما دلت عليه فقد اتهم الله عز وجل بالقصور في البيان ، واتهم كتابه العزيز بالغموض والتعمية والالغاز • فان اللغة التي نزل بها القرآن لم تستعمل أبدا لفظ الاستواء متعديا بعلى الا بمعنى العلو والارتفاع ونحن نتحدى أن يأتي أحد بنقل صحيح عن معتد بهم في لغة العرب أنه ذكر للاستواء معنى غير ذلك • وأما تأويله بالاستيلاء على العرش استنادا الى قول الشاعر
المجهول :

قد استوى بشر على العراق بغير سيف أو دم مهراق

فهو من أسمح التأويلات وأشدّها فسادا اذ يقتضى أن العرش كان في حوزة غيره سبحانه ، فلما خلق السموات والأرض ملكه واستولى عليه ، مع أنه سبحانه لم يزل مستوليا على العرش وعلى الملك كله منذ خلقه ، وأيضا لو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء كما يزعمون لما كان الاستواء معنى خاصا بالعرش ، بل لجاز أن يقال

استوى على الأرض ، كما يقال استوى على العرش • اذ هو مستول عليها كاستيلائه على العرش •

وليس فى استيلائه على العرش معنى يمدح به ، فان العرش لا يعدو أن يكون من جملة مخلوقاته ، وانما يظهر المدح فى ارتفاعه وعلوه عليه لتدبير أمور خلقه ، كما قال من سورة يونس عليه السلام (ثم استوى على العرش يدبر الأمر) •

٢ - سمي الله عز وجل نفسه فى كتابه بأنه (العلى والاعلى والمعال) واطلاق هذه الأسماء يقتضى بثبوت كمال العلو له سبحانه ، بأن يكون العلو ثابتا من كل وجه فيتناول علو ذاته فوق خلقه ، وعلو مكانته وقدره وعلو غلبته وقهره • فمن خص علوه ببعض هذه المعانى دون بعض فقد قيد ما أطلق الله ، ونقص من معنى العلو الذى هو صفة كمال بغير حجة •

٣ - أخبر الله عز وجل أن بعض الأشياء تنزل من عنده كقوله فى شأن القرآن الكريم (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقوله (ننزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) كما أخبر أن بعض الأشياء تصعد اليه ، كقوله سبحانه (إليه يصعد الكلم الطيب) (تعرج الملائكة والروح إليه) (يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى) (بل رفعه الله اليه) فكيف يتحقق أن يكون سبحانه مبدأ لما ينزل أو ينتهى لما يصعد ، اذا لم يكن عاليا على خلقه • واذا كان لا يليق بأحد منا أن يقول لغيره انت الى فى مكان كذا ، ثم يذهب فلا يجده هناك ، أليس ذلك غشا وتضليلا ينتزه عنه أحكم الحاكمين •

٤ - أخبر الله سبحانه أنه فى السماء بقوله فى سورة الملك (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور • أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) فهل هناك أصرح فى اثبات علوه تعالى على خلقه ، من اخباره عن نفسه بأنه فى السماء أى فى تلك الجهة ؟ وهل يليق بأحد

من العقلاء أن يقول أنا في البيت أوفى المسجد من غير أن يكون فيه ؟ وما الذي يدعو سبجانه الى أن يثبت لنفسه ما ليس بثابت ، بل ما هو في زعمكم مستحيل الثبوت ؟ ومن العجيب أن هاتين الآيتين قد سيقتا في معرض التهديد والوعيد لآحداث الخشية والمهابة ، فإذا لم يكن هو سبجانه في السماء كما أخبر ، فأى معنى لذلك التهديد وهل يبقى له في النفس أثر ؟

٥ - قال الله تعالى في شأن الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) ولا شك أن لفظ الفوق إذا جاء مجرورا (بمن) لا يفهم عنه الا فوقية المكان ، كما في قوله تعالى (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) وكقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) الآية وإذا لم تكن هذه فوقية مكان فما عسى أن تكون ؟ لعالمكم تقولون انها فوقية قهر وقدرة ، فما الموجب لصرفها عن حقيقتها ؟ وأى مدح في تلك الفوقية مع أن قدرته على الخلق كلهم ليست محل شك .

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا ٦ - أخبر الله سبجانه عن بعض الأشياء أنها عنده ، كقوله عن الملائكة (ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) . وكقوله عن أهل الجنة (ان المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) (لهم ما يشاءون عند ربهم) وكقوله حكاية عن امرأة فرعون (رب ابن لى عندك بيتا في الجنة) ، فما معنى هذه العنودية إذا لم تقتض المجاورة والقرب ؟ وإذا كانت كل الأشياء سواء بالنسبة اليه سبجانه ، لا تفاوت بينها بالقرب والبعد ، كما يزعم هؤلاء المعطلة : أن محمدا وهو عند سدرة المنتهى لم يكن أقرب الى الله من يونس وهو في بطن الحوت ، فكيف يصح تخصيص بعض الأشياء بكونها عنده ؟

٧ - قال الله تعالى في شأن فرعون (وقال فرعون يا هامان

ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب • أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا) فمن الذى أخبر فرعون بأن اله موسى فى السماء ، حتى أمر هامان ببناء الصرح ليصل اليه ؟ لا شك أن الذى أخبره بذلك هو موسى عليه السلام نفسه ، بدليل قول فرعون بعد ذلك (وانى لأظنه كاذبا) أى فيما أخبرنى به من أن اله فى السماء • ولا يعقل أن يكون فرعون فعل ذلك من عند نفسه لأنه نفى أن يكون معه اله غيره : فكيف يفترض وجود اله أعلى منه فى السماء ؟ •

٨ - أخبر الله عز وجل أنه يجىء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، كقوله (هل ينظرون الا أن يأتيتهم الله فى ظل من الغمام والملائكة وقضى الأمر) وكقوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) •

فمن أين يجىء الرب جل شأنه ، هل يجىء من أمامهم أم من خلفهم أم عن أيمنهم أم عن شمائلهم أم من تحتهم ؟ • وإذا كانت كل هذه الجهات الخمس لا تصلح أن يأتى منها الرب فلم يبق الا أن يأتيتهم من فوقهم سبحانه وتعالى •

ونكتفى بهذا القدر من آيات الكتاب العزيز ففيه لطالب الهدى كفاية ومقنع • وننتقل الى السنة المطهرة التى أثبتت ما أثبتته الكتاب ، ولم يرد فيها أصلا نفى أو تأويل لما ورد فيه من الصفات • وسنجتزئ منها بالصحيح خوفا من التطويل وحتى لا نفتح المجال لقال أو لقليل •



١ - منها حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : « كانت لى غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لى فأطلقتها ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب منها بشاة ، وأنا رجل من بنى آدم ، فأسفت فصككتها فأتيت النبى ﷺ فذكرت له ذلك فعظم ذلك على ، فقلت يا رسول الله أفلا أعققتها ؟ فقال : أدعها ، فدعوتها ، فقال لها أين الله ؟ قالت : فى السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول

الله ، قال : اعتقها فانها مؤمنة » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي .
٢ - ومنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » متفق عليه .

٣ - حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة « ألا هل بلغت » فقالوا نعم ، يرفع أصبعه الى السماء وينكتها اليهم ويقول : « اللهم اشهد » أخرجه مسلم .
٤ - حديث أبي هريرة « ان الله لما قضى الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : ان رحمتى سبقت غضبى » متفق عليه .

٥ - حديث أبي سعيد الطويل في الخوارج قال : قال رسول الله ﷺ « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني الوحي صباحا ومساء » .

٦ - حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

٧ - حديث أنس بن مالك أن زينب بنت جحش كانت تقضر على أزواج النبي ﷺ تقول « زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات » . وفي لفظ أنها قالت للنبي ﷺ « زوجنيك الرحمن من فوق عرشه » . صحيح رواه البخاري .

٨ - حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته الى فراشه فتأبى عليه ، الا كان الذي في السماء ساخطا عليها » أخرجه مسلم .

٩ - حديث أبي هريرة أيضا قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يصعد الى الله الا الطيب ، فانها يتقبلها بيمينه ويرببها لصاحبها كما يربى أحدكم قلوه حتى

تصير مثل الجبل » أخرجه البخارى •

١٠ - حديث سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ قال لسعد ابن معاذ يوم بنى قريظة « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات » •

١١ - حديث قتادة عن أنس عن النبى ﷺ قال فى حديث الشفاعة الطويل « فاستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى عليه » •
وفى رواية « فأتى باب الجنة فيفتح لى فأتى ربى تبارك وتعالى وهو على كرسية أو سريره فأخبر له ساجدا » •

١٢ - حديث أبى هريرة وغيره فى نزول الرب تبارك وتعالى وهو حديث متواتر ولفظه « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : « من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ فلا يزال هكذا حتى يطلع الفجر » • وقد ورد فى بعض الروايات « لا أسأل عن عبادى غيرى » فهل يعقل نزول الامن هو عال ؟ لكن بعض العلماء يمارون فى حديث النزول ويعترضون عليه بأن فى كل لحظة من الزمان ثلث ليل آخر ، فهلا اعترضوا بذلك على قائله ؟ عليه الصلاة والسلام •

وإذا كان هذا هو مبلغ ايمان هؤلاء بكلام نبيهم ، فماذا نمك نحن لهم ؟ اللهم انها فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء •
١٣ - حديث الاسراء والمعراج ، وهو متواتر أيضا ، وفيه « ودنا الجبار فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى » وفيه أيضا أن موسى قال لنبينا عليهما الصلاة والسلام « أرجع الى ربك فاسأله التخفيف » وأن النبى ﷺ قال « ما زلت أرجع بين ربى وبين موسى » •

ونجترى بهذا القدر من السنة المطهرة ، وكلها أحاديث متونها وأسانيدها كالشمس فى الاشراق ، ولكن المعطل الجاحد بما فى قلبه من غرض التعطيل لا يسيغها بل يشرق بها •
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وأورد بعد ذلك ما يتسع له المجال من كلام الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الهدى الذين هم أعرف بالله ودينه وكتابه ، وأشد تنزيها له من هؤلاء النافين الجاحدين .



١ - أخرج البخارى فى تاريخه من حديث نافع عن ابن عمر قال « لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر رضى الله عنه « أيها الناس : ان كان محمد الهكم الذى تعبدون فانه قد مات ، وان كان الهكم الذى فى السماء ، فان الهكم لم يمت » .

٢ - قال عمر رضى الله عنه فى شأن خولة بنت ثعلبة « هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات » .

٣ - قال عبد الرحمن بن غنم : سمعت عمر بن الخطاب يقول : « ويل لديان الأرض من ديان السماء يوم يلقونه ، الا من أمر بالعدل ففضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا على رغبة ورهبة ، وجعل كتاب الله مرآة عينيه » .

٤ - روى عاصم عن زر بن حبیش عن ابن مسعود قال « العرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شىء من أعمالكم » .

٥ - وصح عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال « من قال سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، تلقاهن ملك فخرج بهن الى الله فلا يمر بملا من الملائكة الا استغفروا لقائلهن ، حتى يجىء بهن وجه الرحمن عز وجل » .

٦ - وصح عنه كذلك أنه قال « ان العبد ليهم بالأمر من التجارة والامارة حتى اذا تيسر له ، نظر الله اليه من فوق سبع سموات ، فيقول للملائكة اصرفوه عنه فانه ان يسرته له أدخلته النار » .

٧ - وصح عن عائشة أنها قالت يوم قتل عثمان « وأيم الله انى لأخشى لو كنت أحب قتله لقتلت ، ولكن علم الله فوق عرشه أنى لم أحب قتله » .

٨ - روى الحسن عن أمه عن أم سلمة رضى الله عنها في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالت الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به ايمان والجحود به كفر « وهذا القول محفوظ كذلك عن ربيعة الرأى ومالك بن أنس وأبى جعفر الترمذى وغيرهم .

٩ - كان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول : « حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرأة من فوق سبع سموات » .

١٠ - قال نوف البكالى - من وعاظ التابعين - « ان موسى عليه السلام لما سمع كلام الله قال : من أنت الذى يكلمنى ؟ قال : أنا ربك الأعلى » .

١ - وروى اللالكائى عن ثابت البنانى قال : « كان داود يطيل الصلاة ثم يرفع رأسه الى السماء ويقول اليك رفعت رأسى ، نظر العبيد الى أربابها ، يا ساكن السماء » .

١٢ - روى مقاتل بن حيان عن الضحاك فى قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) قال : « هو على عرشه وعلمه معهم - وفى لفظ - هو فوق العرش وعلمه معهم حيث كانوا » .

١٣ - قال الحكم بن عبد الله البلخى صاحب الفقه الأكبر : سألت أبا حنيفة عمن يقول : لا أعرف ربى فى السماء أو فى الأرض . فقال قد كفر . لأن الله تعالى يقول (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سمواته . فقلت : انه يقول : أقول على العرش استوى ولكن قال : لا يدرى العرش فى السماء أو فى الأرض . فقال اذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر .

١٤ - قال الأوزاعى امام أهل الشام « كنا ، والتابعون متوافرون ، نقول ان الله عز وجل فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته » .

١٥ - روى البيهقى باسناده عن مقاتل بن حيان وهو امام

ثقة في قوله تعالى (هو الأول والآخر) قال هو الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، والظاهر فوق كل شيء ، والباطن أقرب من كل شيء ، وانما قرب به بعلمه وهو فوق عرشه .

١٦ - روى عن سفيان الثوري أنه قال في أحاديث الصفات « أمرها كما جاءت بلا كيف » .

١٧ - روى عبد الله بن رافع عن مالك امام دار الهجرة أنه قال « الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء » .

١٨ - روى عن علي بن الحسن بن شقيق أنه قال : قلت لعبد الله بن المبارك : كيف نعرف ربنا عز وجل ؟ قال في السماء السابعة على عرشه ، ولا نقول كما تقول الجهمية : انه هاهنا في الأرض .

١٩ - روى من طريق صحيح عن الشافعي رحمه الله أنه قال « القول في السنة التي أنا عليها ورأيت الذين رأيتهم ، مثل سفيان ومالك وغيرهما : اقرار بشهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل الى السماء الدنيا كيف شاء » .

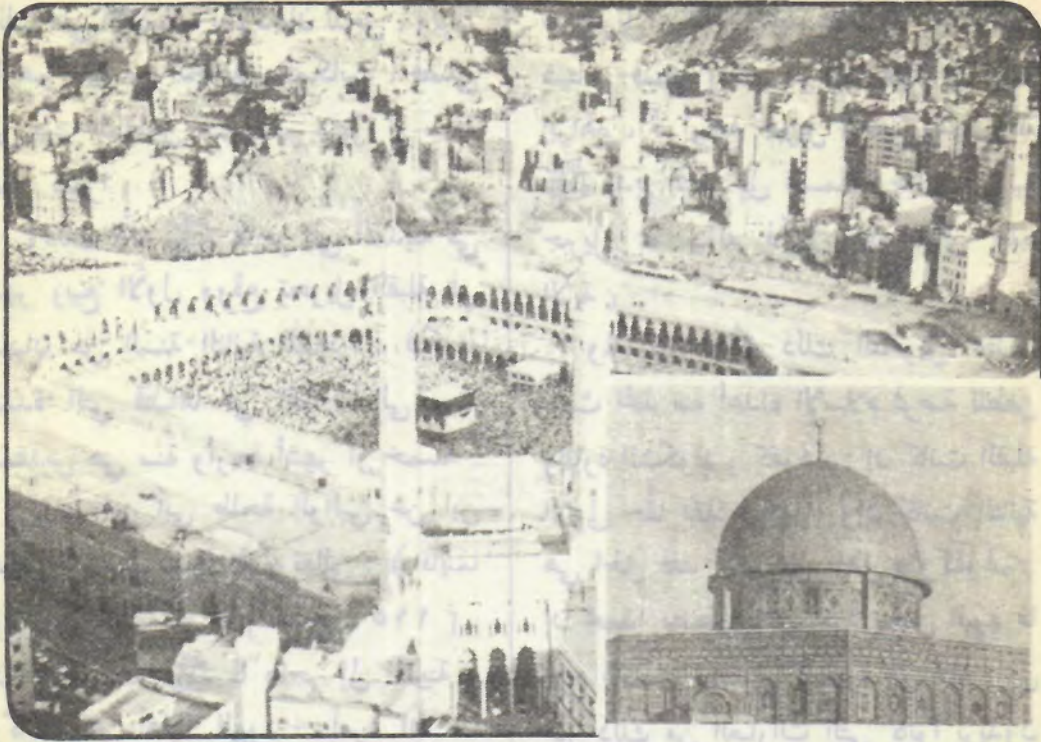
٢٠ - روى أبو بكر الخلال قال قيل لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل رحمه الله : آله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وقدرته وعلمه بكل مكان ؟ قال نعم هو على عرشه ولا يخلو شيء من علمه .

ويتعب القلم وينفذ المداد لو حاولنا احصاء كل ما روى عن هؤلاء الأئمة الأعلام ، حفاظ السنة وقامعي البدعة ، فلنكتف بهذا القدر الآن . فانما أردنا به أن يتبين طلاب الحق أين هو ؟ أهو في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام صحابته والتابعين لهم ، وأئمة الهدى في كل عصر وزمان ؟ أم هو في قول جهم بن صفوان وأشياعه وتلاميذه في التعطيل والنكران . والله هو وحده المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

بقلم فضيلة الشيخ
د . محمد خليل هراس
(رحمه الله)

تحويل القبلة

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ تَرَى ثَقْلَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - : ﴿ مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ : لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل ثم خرج بعد ما صلى ، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس ، فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه توجه نحو الكعبة ، فتعريف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة » متفق عليه .



إلا القوي الجيد الذي له من صلابة الإيمان وقوة اليقين ونور البصيرة ما يرد عنه مضلات الفتن وينجيه من بوائقها .

كان ﷺ - وهو بمكة قبل الهجرة - يصلي مستقبلاً الكعبة بيت الله الحرام . وقيل : إنه كان مع ذلك يستقبل صخرة بيت المقدس ، فكان يصلي بين الركنين اليمانيين ؛ لتقع صلاته إلى القبليتين معاً . فلما هاجر إلى المدينة تعذر عليه ذلك فأمره الله عز وجل أن يستقبل صخرة بيت المقدس ؛ تألفاً لليهود من سكان المدينة لعلمهم إذا رأوه يصلي إلى قبلتهم حملهم

اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبعث على الناس في عهد النبوة بين الفينة والفينة ريح فتنة يتلي بها ما في النفوس ؛ ليظهر الصادق في إيمانه الذي لا تزلزله الفتن ولا تنال منه الزعازع ، من المنافق الذي لا يلبث أن يتكشف ما في نفسه من ظلمات الشكوك وعوامل الهزيمة فيذوب في الفتنة كما يذوب الملح في الماء .

ولقد كان حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أحد هذه الابتلاءات الكبرى التي أراد الله بها هز المجتمع الإسلامي ؛ لتساقط عن شجرته المباركة الأوراق اليابسة والثمار العفنة ، ولا يبقى

ذلك على الإنصاف والإذعان للحق ، وترك ما هم عليه من الجحد والمكابرة ، فصلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً .

وذلك لأنه ﷺ هاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول ووقع تحويل القبلة في شعبان من السنة الثانية للهجرة ، فتكون المدة التي قضاها في التوجه إلى بيت المقدس هي سنة وأربعة أشهر أو خمسة . روى ابن أبي طلحة الوالبي عن ابن

عباس في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] . أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة - وكان أكثر أهلها اليهود - أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها بضعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم ، فلما صرفه الله تعالى إليها ارتاب من ذلك اليهود ، وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وروى الكلبي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] (أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام : « وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها » ، وكان يريد الكعبة ؛ لأنها قبلة إبراهيم ، فقال

له جبريل : إنما أنا عبد مثلك لا أملك لك شيئاً ، فسل ربك يحولك عنها إلى قبلة إبراهيم ، ثم ارتفع جبريل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بما سأله فأنزل الله تعالى هذه الآية) .

ولما كان شأن ذلك التحويل عظيماً حيث اتخذ منه أعداء الإسلام فرصة للطعن وإثارة الشكوك ، كقولهم : إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل ، وكقولهم : إن محمداً مضطرب في أمره ينقض اليوم ما أبرم بالأمس ، يصلي كل يوم إلى قبلة ، إلى غير ذلك من العبارات التي كانوا يريدون بها بلبلة الأفكار والتأثير على ضعفاء الإيمان من المسلمين ، وقد بلغوا من ذلك بعض ما أرادوا فارتد الناس من ضعفة الإيمان عن دينهم .

أقول : لما كان شأن ذلك التحويل عظيماً وطأ الله عز وجل قبله بآيات كثيرة ، وأنزل في شأن التحويل طائفة كبيرة من الآيات من سورة البقرة ؛ تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، ورداً على المطاعن والمفتريات التي كان يشغب بها أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين .

فالأيات من قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾

[البقرة : ١٠٦] إلى قوله سبحانه : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] كلها في شأن تحويل القبلة ، فذكر سبحانه أولاً أمر النسخ الذي كانت تنكره اليهود ، وبين قدرته عليه ، وأنه مهما ينسخ من آية يأت بخير من المنسوخ أو مثله ، ثم أعقب ذلك بالمعاقبة لمن يتعنت على رسوله ﷺ ولا ينقاد لأمره وحكمه .

ثم أخبر عن تمنى أهل الكتاب أن يردوا المؤمنين كفاراً مثلهم من بعد ما تبين لهم الحق ، وأمرهم بالعفو عنهم حتى يأتي الله بأمره فيهم .

ثم ذكر اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء وهم يتلون الكتاب . ثم ذكر شركهم بنسبتهم الولد إلى الله . ثم أخبر أن المشرق والمغرب لله فأينما ولى عباده وجوههم فثم وجه الله . ثم أخبر رسوله بأن أهل الكتاب لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم ويصلي إلى قبلتهم ، وحذره من اتباع أهوائهم .

ثم ذكر خليله إبراهيم باني البيت الحرام ، وكيف أنه جعله للناس إماماً ، وقدوة في الدين لما وقى بكلمات الله .

ثم نوه بشأن البيت وأنه جعله مثابة للناس وأمناً ، وأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى .

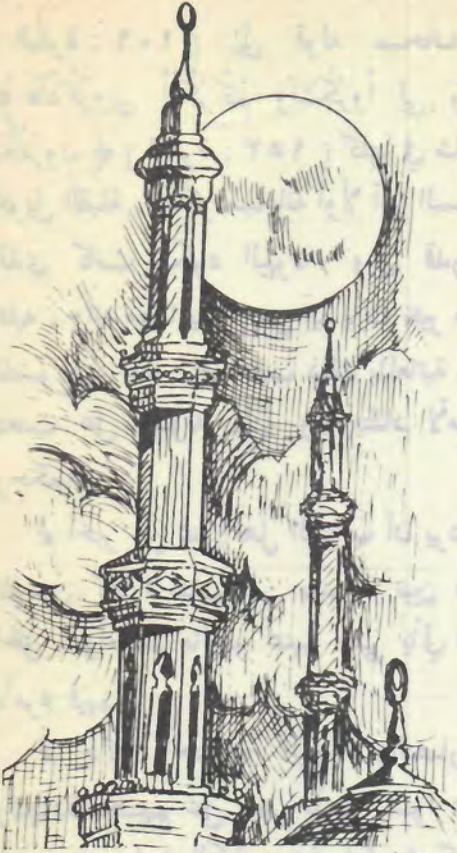
ثم ذكر ما قام به إبراهيم من رفع قواعد البيت الحرام بمعونة ولده إسماعيل عليهما السلام ودعائهما بعد الفراغ من ذلك بأن يتقبل الله عملهما ، وأن يجعل ذريتهما أمة مسلمة له ، وأن يريهما مناسكهما ويتوب عليهما ، وأن يبعث في هذه الأمة المسلمة رسولاً منها يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

ثم أخبر أن ملة إبراهيم - وهي الإسلام الذي يقوم على التوحيد الخالص من كل شائبة - لا يرغب عنها إلا كل سفیه أحق ، وإن إبراهيم وصى بها بنيه وكذلك يعقوب عليهما السلام ، وبين أنها الدين الحق وليست اليهودية أو النصرانية كما تزعم اليهود والنصارى .

ثم أمر عباده المؤمنين أن يتمسكوا بها وأن يقولوا : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

وبين أن تلك هي صبغة الله التي لا صبغة أحسن منها ، وأن اليهود والنصارى لن يكونوا مهتدين حتى يؤمنوا بها .

ثم أخبر عن مقالة السفهاء في القبلة ، وقولهم : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ اللَّاتِي كَانُوا



ثم أمرهم بما لا يتم كل ذلك إلا به وهو الاستعانة بالصبر والصلاة وأخبرهم أنه مع الصابرين .

ولنرجع إلى شرح بقية الحديث من قول البراء رضي الله عنه : فصلى مع النبي ﷺ رجل ، ولم يعرف اسم ذلك الرجل ولا القوم الذين مر بهم وهم يصلون في مسجدهم ، ولكنهم على كل حال ليسوا أهل قباء ، فإن أهل قباء لم يعلموا بتحويل القبلة إلا في صلاة الصبح ، كما جاء في حديث ابن عمر قال : (بينما الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آت فقال : إن النبي

عليها ﷺ [البقرة : ١٤٢] ، ورد عليهم بأن المشرق والمغرب له وحده ، فهو الذي يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء ، وأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ثم نوه بشأن هذه الأمة وأنها الأمة الوسط المزكاة بالعلم والعمل ، وأنها من أجل ذلك تكون شهيدة على سائر الأمم ويكون الرسول شهيداً عليها .

ثم ذكر الحكمة في تحويل القبلة وأنه أراد بها الابتلاء والامتحان ؛ لتمييز الصادق من الكاذب ، ويظهر من يتبع الرسول عن طاعة وإذعان ممن يتمرّد عليه ؛ فينقلب إلى الكفر بعد الإيمان .

ثم أخبر عن تمني نبيه ﷺ أن تكون قبلته الكعبة وتقليبه وجهه في السماء ينتظر الأمر له بذلك ، ثم أمره أن يصرف وجهه إلى الكعبة ، وأمر الأمة جميعاً بمثل ما أمره به ، وبين أن هذا هو الحق الذي يعلمه أهل الكتاب ولكنهم يكتُمونه . ثم كرر الأمر بتلك التولية مرة بعد مرة إزالة لكل تردد . ثم أخبر أنه فعل ذلك ؛ لئلا يكون لأحد من الناس عليهم حجة ، وأنهم ما تحولوا إلا بأمر الله عز وجل ، ثم ذكرهم بنعمته عليهم في إرسال الرسول الخاتم وإنزال الكتاب ، وأمره من أجل ذلك بذكره وشكره ، ورغبتهم في ذلك بأنه يذكر من ذكره ويشكر من شكره .

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الناس الكعبة فاستقبلوه ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وقد اختلف في أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة بعد التحويل ، فحديث البراء هنا يفيد أنها العصر ، وروي عن أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر ، وأنه هو صاحب له كانا أول من صلى مع النبي ﷺ إلى القبلة الجديدة ، وروي كذلك أن الأمر بالتحويل نزل بعد ما صلى النبي ﷺ ركعتين من الظهر ، فاستدار في الصلاة ، وكان ذلك في مسجد بني سلمة ، فسمى المسجد ذا القبليتين ، ويؤخذ من هذا الحديث جملة من الأحكام الأصولية والفرعية ، ذكرها العلامة ابن دقيق العيد في شرحه على « عمدة الأحكام » عند الكلام على حديث ابن عمر المتقدم ، ونحن نجملها فيما يأتي :

١ - قبول خبر الواحد ، وعادة الصحابة في ذلك اعتداد بعضهم بنقل بعض ، وورد عنهم في ذلك ما لا يحصى ، ومعنى ذلك أن خبر الواحد العدل يفيد العلم بمضمونه ويجب العمل به خلافاً للمتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

٢ - استدلال الظاهرية بهذا الحديث على جواز نسخ الكتاب والسنة المتواترة بخبر الواحد ؛ لأن القوم عملوا به ولم ينكر عليهم

النبي ﷺ .

٣ - جواز نسخ السنة بالكتاب ، فإن الصلاة إلى بيت المقدس إنما كانت بالسنة ، إذ لا نص في القرآن على ذلك ، وتحويل القبلة إلى الكعبة إنما كان بالكتاب ، والمنقول عن الشافعي رحمه الله خلاف ذلك .

٤ - دل الحديث على أن حكم الناسخ لا يثبت في حق المكلف قبل بلوغ الخطاب له ، فإنهم بنوا على ما فعلوه من الصلاة جهة بيت المقدس ، ولو ثبت الحكم في حقهم قبل بلوغ الخبر إليهم ؛ لكانت صلاتهم إلى بيت المقدس باطلة ، فلا يجوز البناء عليها ، بل كان يجب استئناها .

٥ - قد يؤخذ منه أيضاً جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ أو بالقرب منه ؛ لأنه كان يمكنهم أن يقطعوا الصلاة ويستأنفوها أو أن يبنوا على ما صلوا فرجحوا البناء .

٦ - وفي الحديث أيضاً دليل على جواز مطلق النسخ ؛ لأن ما دل على جواز الأخص دل على جواز الأعم .

٧ - فيه دليل على جواز تنبيه من ليس في الصلاة لمن هو فيها وأن يفتح عليه القراءة .

٨ - قال الطحاوي : في هذا دليل على أن من لم يعلم بفرض الله تعالى ، ولم تبلغه الدعوة ، ولا أمكنه استعلام ذلك من غيره ، فالفرض غير لازم له والحجة غير قائمة عليه

الشيخ الدكتور محمد خليل هراس

نائب رئيس الجماعة

١٣٣٥ - ١٣٩٥ - ١٩١٥ - ١٩٧٥

ملحوظ في العام الذي توفي فيه حيث ألقى عدة محاضرات في طنطا وأخلة الكبرى والمركز العام للجماعة .

كما كان من بين عارفيه فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، وكان يقدره حق قدره، ويعرف له مكانته العلمية شيوخ كبار من أمثال الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وسماحة الشيخ ابن باز، كما كان رفيقاً للشيخ عبد الرحمن الوكيل، وقد شغل منصب نائب الرئيس زمن رياسته للجماعة . كما كان من إخوانه في ذلك الوقت أبو الوفاء درويش، والشيخ محمد علي عبد الرحيم والذي كان يشي عليه كثيرًا .

مكانته العلمية : كان رحمه الله على قدر كبير من التميز في دراسة العقيدة الصحيحة، وملماً إلماماً محيطاً بفكر الفرق المختلفة، ولديه القدرة على أن يتكلم في موضوعات تحسبها لأول وهلة أنها من أعقد قضايا الاعتقاد . ولكن الشيخ رحمه الله كان يملك القدرة على أن يجلي غامض الأمور . كما كان صاحب نفس طويل . فقد كانت بعض محاضراته تستغرق الساعات، ومنها على سبيل المثال : محاضراته التي ألقاها في الأزهر وطبعت ضمن محاضرات الأزهر بإشراف الدكتور « محمد البهي »

مولده : ولد عام ١٩١٥م في بلدة الشين / كفر الشيخ .

بدأ تعليمه في المدارس الأزهرية عام ١٩٢٦م .
تخرج من كلية أصول الدين جامعة الأزهر سنة ١٩٤٠م

حصل على درجة الدكتوراة ١٩٤٥م وكان موضوع الرسالة :

« ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين » .

شغل وظيفة أستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر .

شغل وظيفة رئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا بجامعة أم القرى (بمكة المكرمة) وقد أنشئ هذا القسم من أجل أن يشغله رحمه الله .

وعند إعارته للسعودية كانت هناك معارضة شديدة من الأزهر، غير أن الملك فيصل - رحمه الله - طلبه وألح في طلبه، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي .

توفي في سبتمبر عام ١٩٧٥م بعد حياة علمية حافلة إذ التقى خلالها بعلماء أجلاء من أمثال الشيخ محمد حامد الفقي مؤسس أنصار السنة المحمدية، وقد كان له نشاط

وكان موضوع المحاضرة : « الصفات الإلهية عند ابن تيمية » .

ولما كَوَّن الشيخ هراس جماعة أنصار السنة المحمدية بطنطا ، وكان يلقي بها محاضراته التي يحارب فيها البدعة ويدعو فيها إلى السنة بالحسنى وبأدلة من القرآن والسنة . وكان لها أكبر الأثر في رد كثير من الناس إلى الحق والصواب . وكان من أثرها أيضًا أن غلي غضب أعداء الحق فتحركوا يشكونه إلى المسئولين وذلك لتشويه مسلكه . وكانت حجتهم قائمة على أساس أنه يكره الأولياء . غير أن هذا الأمر وقع في يد رجل ذكي سرعان ما أدرك الحق . وعرف الباعث على الشكوى . فصحبهم بالكف عن ذلك ؛ لأن الشيخ يدعو إلى الحق .

ومنهج الشيخ في التأليف والشرح والتحقيق

يقوم على ركائز أهمها :

١- إذا كان الشيخ حامد الفقي صاحب باع طويل في التفسير وقدرة على التفرع في الكلام . وإذا كان الشيخ أبو الوفاء درويش موسوعي الاطلاع ، صاحب تفكير مرتب ، ومتعدد النواحي في القراءة والتأليف .

وإذا كان الشيخ عبد الرحمن الوكيل صاحب الفضل بعد الله على أنصار السنة المحمدية إذ عرفهم حقيقة التصوف والصوفية ، ولقت أنظار الناس إلى ردة البهائية والقاديانية . فإن خليل هراس كان متفردًا في معرفة العقائد والفرق الكلامية ، بل والفلسفات الغربية والشرقية قديمها وحديثها .

وكان صاحب منهج مرتب ودقيق ، بل يمكن أن يسمى صاحب التخصص الدقيق في مجال تخصصه ، بل بلغ درجة الأستاذية : منهجية في الكتابة ، وإحاطة تامة بالموضوع الذي يكتب فيه أو يتناوله بالبحث .

كذلك كان منهجه رحمة الله عليه يمتاز بالتركيز الشديد في القضايا التي يتعرض للحديث عنها ، ومن أمثلة ذلك شرحه للعقيدة الواسطية ، ومحاضرات في الفلسفة الشرقية والإغريقية .

وكان رحمة الله عليه يتولى باب الإفتاء في مجلة (الهدى النبوي) بعد وفاة الشيخ أبي الوفاء درويش عام ١٣٨٣هـ حتى توفقت المجلة عام ١٣٨٧هـ ، وفي هذه الفترة كتب مجموعة من المقالات تحت عنوان « عقيدة القرآن والسنة » ، وكذلك تحت عنوان « ركن السنة » ، وهذا يذكرنا بأن الشيخ خليل هراس كان غيورًا على السنة غيرة قد تصل إلى درجة الحدة . في مواجهة من يردون الحديث الشريف الصحيح (٥) .

قال عنه الشيخ محمد رشاد الشافعي :

كان يلاقي من عنت الجبارين وكيد المبتدعين وزندقة الملحدين ما لا يطيقه إلا الصابرون المحتسبون ، وإن « جماعة أنصار السنة المحمدية » لتعرف جهوده الموفقة في الدعوة والإرشاد ، خاصة إن منبرها كان الساحة لجهاده ... حيث ابتدأ دعوته فيها ، واستمر بها قرابة أربعين عامًا حتى أسلم الروح .

قلت : ولا يمكن لأحد أن ينسى حوارات الشيخ خليل هراس مع علماء الجماعة أمثال الشيخ أبي الوفاء درويش وكذا حواراته مع علماء الجمعية الشرعية حول موضوع الاستواء . وقد كان عنوانها : « الله مستو على عرشه ولو كره المعطلون » فجزاه الله خير الجزاء .

إنتاجه العلمي

ولئن كان الشيخ قد ترك بعد وفاته فراغًا كبيرًا في الوسط العلمي الديني إلا أنه عوّض تلاميذه ومجبيه عن فقدته ما تركه من مؤلفات . نذكر منها :

- دعوة التوحيد .
- ابن تيمية السلفي (درجة الأستاذية) .
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية .
- شرح القصيدة التونية لابن القيم (الثمار الشهية في شرح التونية) .

- رفع عيسى عليه السلام (فصل المقال في نزول عيسى حيًا وقتله الدجال) .
- الصفات الإلهية عند ابن تيمية (محاضرة أُلقيت بالأزهر الشريف، وطبع ضمن محاضرات الأزهر بإشراف د. محمد البهي) .
- ادفع بالتي هي أحسن (طبع ذكرى علي يوسف) .
- وهي تمثل الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ فايد .
- شرحه على الترهيب والترهيب .
- شرحه لابن هشام (السيرة) .
- الخصائص الكبرى للسيوطي (تحقيق) ط توفيق عفيفي .
- الأموال لأبي عبيد (تحقيق) ط حسين الأنباري .
- التوحيد لابن خزيمة (تحقيق) ط حسين الأنباري .
- مجموعة رسائل منها: الإلحاد سرطان خبيث، وأنماط من الجدل القرآني، الإسراء والمعراج .
- سبل السلام شرح بلوغ المرام (تحقيق) للصنعاني .
- مجموعة مقالات في (الهدى النبوي) تحت عنوان (عقيدة القرآن والسنة) .
- مجموعة مقالات في (الهدى النبوي) تحت عنوان (ركن السنة) .
- مجموعة حوارات في (الهدى النبوي) تحت عنوان (الله مستر على عرشه ولو كره المعطلون) .
- **وصدق رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من قلوب الرجال، وإنما يقبض العلم ب موت العلماء» .**
- **وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .**
- **فتحي أمين عثمان**
- وكيل جماعة أنصار السنة

تهنئة

نوقشت في كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر رسالة الدكتوراة التي تقدم بها الباحث / علي إبراهيم محمد محمد وموضوعها: «مشكلات الكتابة العربية وطرق تيسيرها بين القدماء والمحدثين» وتكونت لجنة الحكم والمناقشة من:

أ.د / عبد الله ربيع محمود .
أستاذ أصول اللغة بالكلية مشرفاً .

أ.د / عبد الفتاح عبد العليم البركاوي .
أستاذ أصول اللغة بالكلية عضواً .

أ.د / إبراهيم محمد أبو سكين أستاذ أصول اللغة بكلية اللغة العربية بالزقازيق عضواً .

وقد حصل الباحث على درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى .

إياكم ومحدثات الأمور

فضيلة الشيخ / محمد خليل هراس (رحمه الله)

عن العرياض بن سارية ، رضي الله عنه ، قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع ، فأوصنا قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » . رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

شرح المفردات

العرياض بن سارية صحابي جليل ، وهو أحد السبعة الذين عذرهم الله عز وجل في تخلفهم عن غزوة تبوك ، وأنزل فيهم قوله من سورة ((براءة)) : { ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون } [التوبة : ٩٢] .

وكان سبب روايته لهذا الحديث أن نفرًا من التابعين زاره في بيته ، ثم رغبوا أن يحدثهم بشيء مما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتحفهم بهذا الحديث العظيم الذي يتضمن من الوصايا الجامعة والقواعد النافعة ما لو تمسك به المسلمون بعد نبيهم لما اشتبهت عليهم السبل ولا مزقتهم الخلافات والأهواء .

ويمهد العرياض ، رضي الله عنه ، لهذه الوصية فيذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد وعظهم موعظة بلغ من قوة تأثيرها أن وجلت منها القلوب ، يعني تملكها الفزع والخوف الشديد ، وأن ذرفت منها العيون ، أي فاضت بالدمع الغزير ، فلما سمعوا منه تلك الموعظة ورأوها على

غير المألوف من مواعظه أحسوا بدنو أجله وقرب مفارقتهم إياهم ، فدفعهم حرصهم على الخير أن يطلبوا منه صلى الله عليه وسلم وصية يعتصمون بها بعده ويجعلونها دستوراً ومنهاجاً لهم يقيهم من ورطات الضلال والانحراف ، فعهد إليهم بتلك النصيحة الغالية التي تدل على عظيم شفقتهم بأمرته وحرصه على خيرها وسعادتها .

١- فأمرهم أولاً بتقوى الله ، وهي كلمة جامعة يدخل فيها فعل كل مأمور به واجتناب كل منهي عنه ، فإن كل ما أمر الله به فقد أحبه ورضيه ، وكل ما نهى عنه فقد كرهه وسخطه ، ولا يمكن أن تنال التقوى الكاملة مع فوت شيء من المحبوبات أو فعل شيء من المكروهات ، فإن ذلك موجب لعذاب الله وسخطه ، ومن عرض نفسه لعذاب الله لا يقال : إنه اتقاه ، ولهذا كانت التقوى درجات كثيرة ، ولكل إنسان من التقوى بقدر ما أطاع الله عز وجل فيه امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيهِ .

ولهذا يكثر في القرآن العظيم أن تذكر التقوى وحدها ويرتب عليها الفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مهروب ، كقوله تعالى من سورة ((آل عمران)) : { للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج

مطهرة ورضوان من الله { [آل عمران : ١٥] ،
 وكقوله في سورة ((الأفعال)) : { يا أيها الذين آمنوا إن
 تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر
 لكم } [الأفعال : ٢٩] ، وكقوله في سورة ((النحل)) :
 { ولدار الآخرة خيرٌ ولنعم دار المتقين } جنات عدن
 يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك
 يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون
 سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون { [النحل : ٣٠ -
 ٣٢] .

وقد تقرر التقوى بغيرها كما قرنت بالصبر في قوله
 تعالى : { إنه من يتق ويصبر } [يوسف : ٩٠] ،
 وبالإحسان في قوله : { إن الله مع الذين اتقوا والذين هم
 محسنون } [النحل : ١٢٨] ، وبالصدق في قوله : { يا أيها
 الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } [التوبة :
 ١١٩] ، ولكن ليس معنى هذا أن هذه الأمور خارجة عن
 التقوى ، بل هو من ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بشأنه .
 ٢- ثم أمرهم ثانياً بالسمع والطاعة لمن ولاة الله
 أمرهم ، فإنه كما يجب القيام بحق الله في التقوى يجب
 القيام للولاية بحقهم في السمع والطاعة ماداموا لا يأمرون
 بمعصية الله تعالى ، فإنه لا طاعة إلا في معروف ، ولا
 طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، قال الله تعالى : { يا أيها
 الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم }
 [النساء : ٥٩] ، قال المفسرون : هم العلماء والأمراء .

وولي الأمر واجب الطاعة أيضاً كان جنسه أو لونه ،
 حتى ولو كان عبداً مجدع الأطراف كأن رأسه زبيبة ، فإن
 شق عصا الطاعة والخروج على الجماعة تمزيق للصوف
 وتقطيع للأوصار وتمكين لأعداء الإسلام أن يدخلوا
 بدسانسهم ومكايدهم لإذكاء نار الفرقة والاختلاف حتى
 يستفيدوا هم من وراء ذلك ، نعم يجب على العلماء تبصير
 الولاية بمواطن الحق والعدل إن خيف منهم جنوح إلى باطل
 أو ميل إلى جور ، وأن يكون ذلك في رفق وهودة رعاية
 لحرمة الولاية ، فإن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على
 الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما دخل الرفق في شيء إلا
 زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه .

٣- ثم أوصاهم ثالثاً إذا هبت رياح الفتنة وتشعبت
 بالناس الأهواء ونجمت قرون الضلالة أن يستمسكوا بسنته
 عليه السلام ، يعني بطريقته وهديه وبسنة الخلفاء الراشدين
 المهديين من بعده ، وأن يحرصوا على ذلك حرصهم على
 الحياة نفسها ، فإن السنة حينئذ هي قارب النجاة الذي
 يوصل إلى شاطئ الأمان والسلامة ويعصم من الغرق في
 لجج الضلال وطفان الفتنة .

والسنة هي كل ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم
 عليه أمته في الاعتقاد والعمل جميعاً ، فهي تشمل هديته
 كله ، فنصدق بكل ما أخبر عنه من أسماء الله عز وجل
 وصفاته وأفعاله ، ولا نتجاوز ما حده لنا في ذلك ، فلا ننبت
 لله من الأسماء والصفات إلا ما نعلم أنه أثبتته ، ولا ننفي إلا
 ما نعلم أنه نفاه ، ونصدق كذلك بكل ما أخبر عنه من
 الحقائق الغيبية التي لا تعلم إلا من طريقه ، ولا نعارض
 شيئاً من أخباره بقياس عقولنا ولا بأقوال شيوخنا ولا
 بفلسفات أجنبية دخيلة على ديننا ، كما فعله أهل الكلام
 الباطل فضلوا به وأضلوا ، ثم ننظر كيف كان هديه في
 صلاته ، فنصلي كما كان يصلي ، وهكذا في سائر العبادات ،
 وكيف كانت معاملته لأهل بيته ولأصحابه ولأعدائه فنجتهد
 في أن نتخلق بما كان عليه من خلق عظيم هو المثل الأعلى
 الذي يجب أن نهدى إلى تطبيقه على كل شئون حياتنا ، كما
 فعل سلفنا الصالح ، رضي الله عنهم ، في إحياء سنته
 والتمزام بطريقته ، وكذلك نأخذ بما سنه لنا خلفاؤه الراشدون
 الذين كانوا أعرف الناس بسنته وأشداهم أخذاً بها ، فإن
 طريقتهم وهديتهم لا يمكن أن تخالف طريقته وهديه ، بل لا
 تكون إلا تكميلاً وامتداداً لها .

٤- وأخيراً حذرهم أشد التحذير من الأمور المحدثّة
 التي ابتدعت بعده على خلاف طريقته وهديه ، وبين لهم أن
 ذلك كله ضلال وخروج عن سواء السبيل .
 نسأل الله أن يجعلنا ممن أحسن الاتباع لهديه ، وأن
 يقينا شر الابتداع بمنه وكرمه .

فضيلة الشيخ / محمد خليل هراس

حول ذكرى الهجرة

فضيلة الشيخ / محمد خليل هراس (رحمه الله)

كلما أهل هلال المحرم من كل عام وبزغت في الكون غرته الميمونة عاودت نفوس المسلمين تلك الذكرى الخالدة على الزمن ، ذكرى هجرة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه هو وأصحابه من مكة إلى المدينة ، ومثلت في خواطرم تلك الصورة الحية المشرقة التي حفظها التاريخ لهذا الحادث العظيم ، وما احتوته تلك الصورة من ألوان البطولة الرائعة والشجاعة الحقة والتضحية الباهرة التي تجلت في أعمال أولئك النفر من المهاجرين حين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بيتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله .

من بطش الباطل ومكره ، فقد ضيق عليها الخناق ، وحال بينها وبين أن تبلغ القلوب والأسماع ، فكانت هي السبيل لخلص الحق من أسر الباطل وخروجه إلى ذلك المتنفس الذي استطاع أن ينساب منه إلى أنحاء الدنيا الكافرة الحائرة ، فينقذها من ضلالها ، ويرشدها من حيرتها ، ويرسم لها طريق السعادة والنجاة .

كانت الهجرة مرحلة حاسمة من مراحل الدعوة الإسلامية ، أو بالأحرى كانت فاصلاً بين عهدين متميزين غاية التمايز : عهد كان فيه المسلمون بمكة قليلاً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ، كانوا يؤذون فيصرون ، ويظلمون فيغفرون ، وكان بعضهم إذا اشتد به الأذى ولم يطق صبراً على ظلم قومه له خرج إلى الحبشة مهاجراً ، ولم يكن المسلمون في هذه الفترة من القوة والكثرة بحيث يستطيعون أن يقابلوا العدوان بمثله ، وكان منهم من

وليس عجباً أن يكون لحادث الهجرة تلك الأهمية الخاصة التي امتاز بها على غيره من أحداث الإسلام الكبرى حتى اختير من بينها ليكون مبدأ للتاريخ الإسلامي ، فإن ما تضمنه هذا الحادث من العبر والعظات ، وما تجلى فيه من معاني الرجولة والثبات وكريم التضحيات وما اكتنفه من الظروف والملابسات ، وما ترتب عليه من جلائل الآثار وعظيم الأخطار ، كل ذلك جدير أن يجعله في الطليعة بين الأحداث العالمية الكبرى التي غيرت وجه التاريخ ، وحولت مجرى الحياة البشرية ، ودرسا خالداً ينتفع به المسلم وغير المسلم ، وعبرة ماثلة في جميع الأجيال والعصور يتأسى بها كل من يتصدون للدعوة إلى الإصلاح حتى يصلوا بأمرهم إلى ما ييغون لها من خير وفرح .

إننا لا نستطيع أن نقدر تلك الهجرة قدرها إلا إذا صورنا لأنفسنا ما كانت تعانيه دعوة الحق في مكة



وتحرص عليها حرصها على الحياة لم يقعدهم ذلك عن الهجرة ولا صرفهم عن تنفيذ ما أمروا به ، بل آثروا حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على كل ما هنالك من رغبات النفوس وعلائقها ، حتى لقد كان الواحد منهم يتعرض له ابنه أو أبوه أو زوجته يريدون تثبيطه عن الهجرة فلا يلتفت إليهم ولا يأبه لتوسلاتهم .

ولا ننسى - ونحن نتكلم عن الهجرة - ذلك الموقف الرائع الذي وقفه الأنصار من إخوانهم المهاجرين ، فقد آوهم وواسوهم وأكرموا وفادتهم ، وآثروهم على أنفسهم مع ما بهم من خصاصة ، حتى أزالوا من نفوسهم ألم الاغتراب ، وأشعروهم أنهم في ديارهم وبين أهليهم .

فهل أن للمسلمين أن يحسنوا الاقتداء بأسلافهم في هذه الأعمال المجيدة وقد تألبت عليهم دول البغي والاستعمار ، تمنع في إزلالهم وتفنن في الكيد لهم وتوسعهم في ديارهم قتلًا وتكيدًا .

هل أن لهم أن يحققوا فيما بينهم تلك الأخوة الرحيمة التي انتصر بها أسلافهم ، وأن يسترخصوا أنفسهم وكل عزيز لديهم في سبيل عزة الإسلام ونصره ، وأن يستهينوا في سبيل تلك الغاية الكريمة بكل ما يصيبهم من ألم وجهد إن فعلوا ذلك كانوا صادقين في احتفالهم بالهجرة ، وكان لهم في رسول الله وصحابته أسوة حسنة .

أما تلك الاحتفالات الهزيلة العقيمة التي لا تتجاوز إلقاء الخطب وكتابة المقالات ولا تدفع إلى العمل الجدي في سبيل استرداد الأمجاد الإسلامية الضائعة فأجدر بها أن لا تكون .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يود لو أذن له في القتال ، ولكن القرآن كان ينزل أمراً لهم بالعفو والصفح ، حتى يأتي الله بأمره ، فلما كانت الهجرة انبثق فجر عهد جديد ، ووجد المهاجرون في مهاجرهم الجديد مراغماً كثيراً وسعة ؛ إخواناً من الأنصار ذوي عدة ومنعة ، فقويت بذلك شوكة الإسلام ، وأصبح مستعداً لمنازلة الشرك ومجالدته بالسيف ، فما أن التقى به في غزوة بدر الكبرى حتى ضرب به تلك الضربة الهائلة التي أذلته وأطاحت بكثير من رعوسه ، ثم كانت غزوات أخرى انتهت بذلك الفتح المبين والنصر الموزر ، ودخل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مكة البلد الحرام يعلن نهاية الشرك ويقرأ : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » [الإسراء : ٨١] ، ثم بدأت وفود القبائل بعد ذلك تغد من أنحاء الجزيرة تعلن إسلامها وانضواءها تحت لواء الدعوة الجديدة ، وكانت الهجرة هي الباب الذي دخل منه المسلمون إلى حياة العز والكرامة والحرية والقوة .

إن الناظر المتأمل في حادث الهجرة العظيم ليجد فيه من العبر ومن كريم المعاني ما يجب أن يكون أسوة حسنة للمسلمين ، ودرساً مثلاً في أذهانهم يتعلمون منه كيف يكون الثبات على دعوة الحق مهما اشتدت الفتنة وعظمت المحنة ، فلقد أودى المسلمون بمكة وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وأجلبت عليهم قریش بخيلها ورجلها ، وسلكت كل سبيل لغتنتهم وردهم عن دينهم ، فلم تر منهم إلا الثبات الذي لا يعرف التردد والعزيمة التي لا تقبل النكوص ، حتى مات بعضهم تحت سياط العذاب ، فما جزعوا لذلك ، ولا حملهم على الرجوع عن معتقدتهم ، ولما أمروا بالهجرة وفيها ما فيها من فراق الأهل والولد والمال والعشيرة والديار الحبيبة ، وكلها أمور تضن بها النفس

نصيحة

لفضيلة الشيخ / محمد خيل هراس (رحمه الله)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، ثم أما بعد :

فرضاً دون أن يجدوا لها مساعداً في عقولهم ،
والتي لا يعودون من دراستها إلا بصدع
الرءوس وسأم النفوس ، وكم عانيت من
ثورتهم علي أثناء الدرس بسبب هذه الكتب ،
حتى لقد يقول لي أحدهم : إنا ما جئنا إلى هذا
المكان لنضيع أعمارنا في هذا الهراء ، وكم
كنت أعذرهم وأرشي لهم ، فإن وقتي ووقتهم
أثمن حقاً من أن ننفقه في هذا السخف ، وكم
كان ضميري يجزع أشد الجزع حين أراني بعد
مضي عام كامل لم أفرغ من تقرير تلك الجملة
التي صارت مضرب المثل « حقائق الأشياء
ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً
للسوفسطائية » .

لذلك رأيت أن أتوجه إليكم أيها الأبناء بتلك
الوصاة ، راجياً أن تجعلوها نصب أعينكم ،

أتوجه بنصيحتي هذه إلى أبنائنا من شباب
الأزهر ، فقد أوشك العام الدراسي على
الانتهاء ، وأن لهم أن ينوبوا إلى قراهم
وأهليهم ، فمن حقهم علينا أن نزودهم ببعض
النصائح ، وأن نوجههم الوجهة التي نعتقد فيها
الخير لهم ولمن حولهم ، وأنه ليس أولى من
الشباب بالنصيحة ، لا سيما إذا كان هذا الشباب
ممن تعدد دراسته والعلوم التي يتلقاها ليكون
مرشداً للناس إلى الله الحق وصراطه
المستقيم .

وإن مما يشجعني على توجيه تلك النصيحة
إلى هؤلاء الأبناء ما لمستهم فيهم طوال العام
الدراسي من الرغبة في الفهم الصحيح والعلم
النافع والنفرة الشديدة من الجمود على التقليد ،
والتبرم بتلك الكتب العقيمة التي فرضت عليهم

البلاد ، وما يزعم الدجالون من شيوخ تلك
الطرق من سيطرة روحية يستغلون بها السذج
والدهماء ، طمعاً في ابتزاز الأموال ، وتحصيل
الإتاوات .

حاربوا تلك الخرافات والأوهام التي أفسدت
عقول الناس وانحرفت بهم عن سبيل الحياة
الجادة المستقيمة ، وصرفتهم عن الأخذ في
الأسباب التي وضعها الله عز وجل ، وبينوا لهم
أن هؤلاء الدجالين الذين يقصدونهم ليدلوهم
على غائب أو ليشفوهم من مرض مستعص ،
أو ليخصبوا المرأة بعد عقم ، أو ليحفظوا
الأولاد من الشر ، أو ليباركوا لهم الزرع
والضرع ، وأن ذهابهم إلى تلك الأضرحة
المشيذة وطلب قضاء الحاجات من أهلها ،
واعتقاد أن الموتى المقبورين أحياء في
قبورهم ، وأنهم يسمعون من دعاهم .. إلى غير
ذلك مما لست أحصره ، ولستم أنتم في حاجة
إلى أن أدلكم عليه .

بينوا للناس أن ذلك كله لا يغني عنهم من
الله شيئاً ، وأنه شرك بالله عز وجل ، وكونوا
في بيان ذلك كله رفقاء ، حتى يثمر نصحكم ،
وينفع علاجكم ، وإلا زادت العلة ، واستفحل
الداء .

وفقكم الله ، ونفع بكم ، إنه ولي التوفيق .

حتى تنتفعوا بما تقرأون وما تسمعون ، وحتى
تنتفع بكم أمتكم ، ويكتب الله لها الخير والرشاد
على أيديكم ، فأديموا النظر في كتاب الله عز
وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،
واعلموا أن الكتاب والسنة هما منهج دينكم
وصراط ربكم الذي أمركم باتباعه ، وحذركم
الانحراف عنه ، حيث قال : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي
مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، فلا تقدموا على قول
الله ورسوله قول أحد ، ولا تأخذوا بكلام أحد
في الدين حتى تعرضوه على الكتاب والسنة ،
فإن وافقهما فهو حق ، وإن خالفهما فهو باطل
مهما كان قائله ، وعليكم بعد ذلك باقتفاء آثار
السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وتتبع
ما قالوه ، فاتهم أكمل هذه الأمة علماً وإيماناً ،
والحق لا يخرج عنهم أبداً ، وخطأهم قليل
نادر ، فلا تعدلوا عما قالوه إلى تلك الآراء
والمذاهب الباطلة التي أحدثها المتأخرون ،
متأثرين فيها بتلك الفلسفات الدخيلة والجدل
العقيم ، واهتموا جيداً بمعرفة البدع والمحدثات
التي لصقت بالدين ، فشوهت جماله وبساطته ،
وأثارت سخرية العالم من أهله ، وإذا رجعت
إلى بلادكم فستجدون من هذه البدع الشيء
الكثير في بيوتكم وفي مساجدكم وفي جنازكم
وفي الجمع والأعياد ، وفي الموالد والأضرحة ،
وفي تلك الطرق الصوفية المنتشرة في أرجاء

شرح المفردات :

حذيفة بن اليمان : صحابي جليل ، كان أعلم أصحاب رسول الله ﷺ بالمنافقين ، حتى إنهم كانوا يعرفون نفاق الرجل إذا لم يصل عليه حذيفة . وكان عمر الفاروق ، رضي الله عنه ، على جلالة قدره وسابقته في الإسلام يسأل حذيفة : هل تجد في خصلة نفاق ؟ فيقول له : لا ، ولا أزكي أحداً بعدك .

توفي - رضي الله عنه - عام ست وثلاثين من الهجرة في السنة التي وقعت فيها موقعة الجمل المشهورة .

يظهر الفتن : أصل الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان ، وهو مأخوذ من فتنة الذهب ونحوه على النار لتخليصه وتفتيته مما يخالطه من أتربة وأوضار ، ثم صارت في العرف لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء ، يقال : فتن الرجل يفتن فتوناً إذا وقع في الفتنة ، وتحول من حال حسنة إلى حال سيئة .

فتنة الرجل في أهله وجاره : قيل : إن معنى ذلك هو أن يفرط في محبتهم والاشتغال بهم ، حتى يشغلوه عن كثير من أبواب الخير ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَوْا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] ، وكما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا

التحذير من الفتن

بقلم الشيخ / محمد خليل هراس
(رحمه الله)

عن حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنه ، قال : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه ، فقال : لعنكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ؟ قالوا : أجل ، قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا ، قال : أنت ؟ لله أبوك ! قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجحياً لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

قال حذيفة : وحدثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر ، قال عمر : أيكسر ؟ لا أنا لك ، فلو أنه فتح لعنه كان يعل ، قلت : لا ، بل يكسر ، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت . حديثاً ليس بالأغليط .

أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿ [التغابن : ١٥] .

وقيل : المراد بذلك التفريط في بعض ما يلزمه القيام به من حقوقهم باعتباره راعياً لهم .

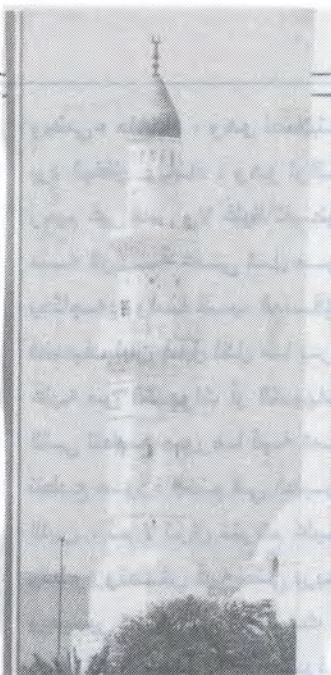
التي تموج موج البحر : أي تضطرب ويدفع بعضها بعضاً ، شبهها بموج البحر في شدتها وكثرة شيوعتها واختلاطها وتدافعها .

فأسكت القوم : قال أهل اللغة : سكت وأسكت لغتان بمعنى صمت ، وفرق الأصمعي بينهما فقال : سكت بمعنى صمت ، وأسكت بمعنى أطرق ، وإنما أسكتوا ؛ لأنهم كانوا لا يحفظون ما قاله الرسول ﷺ في ذلك النوع من الفتنة .

لله أبوك : كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها ؛ لأن الإضافة إلى العظيم تشرىف ، فإذا فعل الرجل ما يحمد عليه قيل له : لله أبوك ، يعني حيث أتى بمثلك .

تعرض الفتن على القلوب : المراد بالعرض هنا ؛ التعرض والظهور ، كأن الفتنة تعرض نفسها على القلوب أن تظهر لها فتنة بعد أخرى .

كالحصير عوداً عوداً : الحصير معروف ، والعود هو بضم العين والبدال المهملة واحد الأعود ، شبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها ؛ لأنه كلما



صنع عوداً أخذ آخر ونسجه ، ووجه الشبه الكثرة والتلاحق وسهولة التناول .

فأي قلب أنزبها : معناه : دخلت فيه دخولاً تاماً وتمكنت منه كأنها حلت منه محل الشراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة : ٩٣] ؛ يعني تمكن حبه من نفوسهم .

نكت فيه نكتة سوداء : أي نكت فيه نقطة ، قال ابن دريد وغيره : كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت .

وأي قلب أنزبها : يعني ردها ولم يقبلها ولم يتلبس بها .

أبيض مثل الصفا : الصفا ؛ هو الحجر الأملس كالصفوان ، والمراد أن هذه القلوب لم تعلق بها الفتنة ولم تؤثر فيها ، كأنها

حجر أملس لا يعلق به شيء ، وهو كناية عن استمساكها بعقد الإيمان وسلامتها من الضعف واللين ، فلم تستطع الفتن أن تغيرها أو تؤثر فيها .

أسود مريباً : الاربداد شيء من بياض يسير يخالط السواد ، يقال : أربد يربد فهو مريب كحمر ومصفر ، والمراد أن هذا القلب تعلوه النكت بسبب تشربه الفتنة وقبوله إياها حتى يسود كله ولا يبقى فيه إلا خيوط ضئيلة من بياض .

كالكوز بجحياً : يعني أنه نكس وقلب حتى لا يستقر به خير ولا حكمة ، كما لا يستقر الماء بالكوز المقلوب .

قال القاضي عياض : شبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه .

المعني الإجمالي للحديث :

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن لا يدع الناس هكذا يختلط شرارهم بخيارهم ، ولا يعرف مؤمن من منافق ، ولا يتميز صادق عن كاذب ، بل هو سبحانه يبتليهم بأنواع من الابتلاء التي تظهر مطاوي القلوب وخفايا النفوس ، كما قال تعالى في سورة « آل عمران » : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ »

حَتَّى يَمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿ [آل عمران : ١٧٩] . وكما قال في سورة ((العنكبوت)) : ﴿ الم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣] .

وحينما تهب ريح الفتنة على القلوب تهزها هزاً عنيفاً فتساقط القلوب الهشة الضعيفة كما يتساقط الحشف اليابس ، وتماع في الفتنة كما يذوب الملح في الماء ، وتركض فيها ركض الجواد في حلبه السباق .

وأما القلوب المؤمنة التي ذاقت حلاوة الإيمان وخالطتها بشاشته فتثبت وتتماسك وتتشبث بعرى الحق في قوة ، وتعتصم بما عرفت من معالم الهدى ، وتستقيم على النهج الواضح لا تزيفها عنه فتنة ، ولا تؤثر فيها ضلالة ، وقد ضرب الله المثل لقلب المؤمن في سورة ((النور)) بالزجاجة الشديدة الصفاء التي تلمع كما يلمع الكوكب الدرّي في أفق السماء ، فقلب المؤمن جامع لأوصاف ثلاثة هي : الصفاء ، والرقّة ، والصلابة ، فهو لصفاته ينفذ إليه نور الحق ، فيشع في جوانبه ،

ويضيء حناياه ، وهو لصلابته يرد الباطل ويأباه ، وهو لرقّته رحيم غير قاس ولا غليظ تفيض منه الرحمة على كل من يحتاجه ، وأما قلب المنافق فضيف لين قابل لكل ما يرد عليه من الشهوات أو الشبهات التي تنطبع صورها فيه كما تنطبع صورة الختم في الطين اللين ، ثم لا تزال تتراكم عليه وتعلوه وتعشش فيه حتى يبرد ويصير كما في الحديث : « كالكوثر مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً » .

وقد أخبر النبي ﷺ عن كثير من الفتن التي أعلمه الله بالوحي أنها ستجري على أمته ، وقد حذر من الخوض في لجئها ، وأمر بالاعتصام عندها بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وأن يأخذ المؤمن ما يعرف ويدع ما ينكر ، وفي « صحيح البخاري » وغيره : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شفغ الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن » . ولكن أمر الله كان قدراً مقدوراً ، وفي الحديث يحدث حذيفة عمر عن الفتنة التي تموج موج البحر ، ويقول له : إن بينك وبينها باباً يوشك أن ينكسر ، وكان عمر ، رضي الله عنه ، هو ذلك الباب الذي

انكسر ، فما هو إلا أن قتل بيد الغدر اللئيم ، حتى تحدرت الفتنة بعده تحدر السيل ، وهدرت هدير الموج ، وقيض الله لها من أبالسّة الشر ورعوس المكر والضلالة ممن تغلي مراحيل قلوبهم بالحق على الإسلام من يذكي نارها ويشب أوارها ، حتى أكلت فيمن أكلت الخليفة الثالث والشيخ الوقور ذا النورين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، بعد حصار لداره لقي فيه هو وأهله أشدّ العناء ، وفي هذا الجو الذي يغلي بالفتن والسيوف لا تزال مصلته بيد الغدرة اللئام لم تجف بعد من هذا الدم الذكي الحرام ببيع علي رضي الله عنه بالخلافة ، وكان فيمن بايعه أخواه الكبيران طلحة والزبير ، رضي الله عنهما ، ولكنهما لم يلبثا أن أحسا وخزة الندم لخذلهما عثمان ، قصمما على المطالبة بدمه ونقضا ما في عنقيهما من بيعة علي وقدماء البصرة يستنفران أهلها ، واستقدما إليها أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، وكانت وقعة الجمل المشهورة ، ثم احتدم الخلاف بين علي ومعاوية ، وكانت موقعة « صفين » التي قُتل فيها نحو من ثلاثين ألفاً من المعسكرين ،

ثم كانت مهزلة التحكيم التي انتهت بخروج الخوارج الذين روعوا المجتمع الإسلامي بما ارتكبوه من فظائع ، حتى قتل بهم علي في معركة النهروان ، ثم كانت موقعة الحرة زمن يزيد بن معاوية ، واستباحة حرم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام يعيث فيه جند يزيد بالفساد ، بعد أن قتلوا معظم أهلها من أبناء الأنصار والمهاجرين ، ثم استشهاد الحسين بكربلاء على يد جند عبيد الله بن زياد ، ثم كان حصار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير وجنوده على يد الحجاج بن يوسف الثقفي في خلافة عبد الملك بن مروان ... إلخ ما حفظه التاريخ من فتن وأحداث تموج بالناس موج البحر وتتابع تتابع القطر .

واستتبع هذا الخلاف السياسي خلاف من نوع آخر حول تفسير بعض العقائد الدينية ، فقال الخوارج بكفر مرتكب الكبيرة ، وحكموا عليه بالخلود في النار ، وشاركهم المعتزلة في الأمر الثاني ، ولكنهم لم يسموه كافراً ، بل جعلوه في منزلة بين المنزلتين ، ثم ظهرت بدعة القدرية التي حمل لواءها غيلان الدمشقي

ومعبد الجهني ، ونسب إليها بعض السلف كالحسن البصري ، ثم ظهرت بدعة الإرجاء - يعني تأخير الأعمال عن الإيمان ، واعتقاد أنه لا يضر مع الإيمان ذنب - وقد اتهم بها بعض الأئمة كأبي حنيفة - رحمه الله - بسبب رأيه في الإيمان ؛ وهو أنه لا يزيد ولا ينقص ، ثم ظهرت بدعة الجعد بن درهم في نفى الصفات ، وقد ضحى به خالد بن عبد الله القسري في يوم عيد الأضحى ، حيث خطب الناس وقال لهم : اذهبوا إلى أضحياتكم يتقبل الله منكم فباني مضح اليوم بالجعد بن درهم ؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولا كلم موسى تكليماً .

ثم نزل فذبحه ، ثم تبعه الجهم بن صفوان الترمذي ، وغلا في النفي ، وقال بخلق القرآن ، وذهب إلى الجبر المحض ، وزعم أن العبد لا فعل له ولا اختيار ، ثم ظهرت بدعة المعتزلة ، حمل لواءها واصل بن عطاء ، وتبعه عمرو بن عبيد ، فقالا بقول القدرية ، ونفوا الصفات ، وأوجبوا على الله بقولهم أشياء ، وأنكروا رؤية الله يوم القيامة ، وخرجوا على مقتضى النصوص الصريحة ، وحكموا

العقل وحده في مسائل العقيدة ، ثم ترجمت كتب الفلسفة اليونانية وحكمة الهند وآداب الفرس زمن بني العباس ، فزاد الطين بلة ، واتسع الخرق على الراقع ، وجنحت بالناس الأهواء ، وركبوا متن كل عمياء ، وجاءت الصوفية بأغازها وإشارتها وقالت بالحلول ووحدانية الوجود ، وزعمت الكشف والشهود ، ولبست على الناس بأنواع من المخاريق ، وابتدعت في دين الله من البدع ما لا يحصيه إلا الله ، ثم كانت في العصور المتأخرة بدع البهائية والقاديانية والماسونية التي طال شرورها في كثير من الأقطار الإسلامية .

وهكذا تلاحقت الفتن على هذه الأمة ، ولا تزال حتى تكون فتنة المسيح الدجال التي هي شرها وأشدّها .

نسأل الله أن يعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، إنه العلي الأعلى الكريم الوهاب .

وصلّى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه .



كما في قوله ﷺ : « خير نساء
ركبن الإبل وأحناه على زوج
نساء قريش ». ولهذا ورد
بصيغة التذكير .

قال السهيلي في
« الروض » : الضمير فيه عائد
على الجنس ، أو الضمير عائد
على السَّلامى ، وذكره باعتبار
أنه عضو أو مفصل .

« كل يوم تطلع فيه
الشمس » : هذا ظرف مبين
لتجدد وجوب هذه الصدقات على
الإنسان صبيحة كل يوم في مقابل
ما أنعم الله به عليه من خلق تلك
السلاميات ودوامها ، ولو شاء
لسلبها عنه ، وقد ورد أن
الصدقة تدفع البلاء ، فيأخرها
عن أعضائه يرجى اندفاع البلاء
عنها ، وظاهر قوله ﷺ : « عليه
صدقة » وجوب الشكر بهذه
الصدقة كل يوم .

لكن جاء في رواية أخرى :
« فإن لم يفعل فليمسك عن
الشر ، فإن له به صدقة » . وهو
يدل على أنه يكفي أن لا يفعل
شيئاً من الشر في إسقاط هذا
الوجوب .

« تعدل بين الاثنين
صدقة » : هذا بيان لبعض أنواع
الصدقات التي يمكن أن يتصدق
بها صبيحة كل يوم ، والجملة
مستأنفة واقعة في جواب سؤال
مقدر ، كأنه قيل : بأي شيء
تتصدق ؟ فقيل : تعدل .. إلخ .
وهو يدل على أن لا تكون بمال

عن أبي هريرة ، رضي الله
عنه ، قال : قال رسول الله
ﷺ : « كل سَلَامى من الناس
عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه
الشمس : تعدل بين الاثنين
صدقة ، وتعين الرجل في دابته :
فتحملة عليها ، أو ترفع له متاعه
عليها صدقة ، والكلمة الطيبة
صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى
الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن
الطريق صدقة » . رواه البخاري
ومسلم .

شرح مفردات الحديث :
« كل سَلَامى من الناس
عليه صدقة » : « كل » بالرفع
مبتدأ ، و « سَلَامى » مضاف
إليه ، والخبر : « عليه
صدقة » ، والسَّلامى بضم السين
وتخفيف اللام هو العضو ،
وجمعه سلاميات ، يفتح الميم
وتخفيف الياء ، وقيل : جمعه
ومفرده واحد .

وقال ابن الأثير في
« النهاية » : السَّلامى جمع
سلامية : هي الأتملة من أنامل
الأصابع ، وهي التي بين مفصلين
من أصابع الإنسان . وقيل : كل
عظم مجوف من صغار العظام .
وقال النووي في شرح
« مسلم » : أصله عظام الأصابع
وسائر الكف ، ثم استعمل في
سائر عظام البدن ومفاصله .
وقوله : « من الناس » في
محل الصفة لسَّلامى ، والضمير
في « عليه » عائدة إلى الجنس ،

من روائع المأثور
في سنة النعمة

الكلمة

الطيبة

صدقة

كتبه الشيخ :

محمد خليل هراس

(رحمه الله)



فقط ، بل تشمل كل ما فيه نفع للمسلمين ، أو دفع أذى عنهم ، كما أنه لا يلزم أن تكون متعديّة إلى الغير ، فإن المشي إلى الصلاة نفعه قاصر على صاحبه ، والمراد بالعدل بين الاثنين هو الفصل فيما شجر بينهما من نزاع ، مع تحري العدل في ذلك ، فلا يحابي أحدهما لنسب أو قرابة أو صداقة ، ويجتهد في إصلاح ذات بينهما ، فيكون له ذلك صدقة ، حيث أزال ما بينهما من إحن ، ووقاهما مما يترتب على الهجر والخصام من قبيح الأقوال والأفعال .

﴿ وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ﴾ : هذا هو الأمر الثاني أن يعين الرجل في شأن دابته ، فإن كان يريد الركوب عليها أمسكها له حتى يركب ، أو أعانه على النهوض فوقها ، وإن كان يريد أن يحمل عليها متاعاً ساعده في رفعه ، فهو عمل من أعمال المروءة التي يشكرها الله للعبد ويحبها له صدقة ، والداية في الأصل اسم لكل ما يدب على الأرض ، ثم استعملها العرف في ذوات الأربع ، وقد يراد لها خصوص الخيل

﴿ والكلمة الطيبة صدقة ﴾ : الطيب ضد الخبيث ، وهو كل ما فيه نفع وصلاح ، مع خلوه من الشر والفساد ، والمراد بالكلمة الطيبة مثل الذكر والدعاء

لنفسه أو لغيره وإفشاء السلام ورده ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ضرب الله المثل للكلمة الطيبة بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . وفي الحديث : « رحم الله عيدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » .

﴿ وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ﴾ : الخطوة بفتح الخاء اسم للمرة من الخطا ، وبالضم لما بين القدمين ، ويلحق بالصلاة في ذلك ما في حكمها من طلب العلم وصلة الأرحام وزيارة الإخوان ، وغير ذلك من القربات .

﴿ وتميط الأذى عن الطريق صدقة ﴾ : يقال : أماط الشيء عن الشيء : بمعنى أنه أزاله ونحاه ، والأذى كل ما يؤذي المارة من حجر وشوك ونحوهما .

وإنما جعل إمطة الأذى آخرًا ؛ لأنها دون ما قبلها من الخصال في الأهمية ، كما يدل عليه الحديث الصحيح : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

﴿ المعنى الإجمالي ﴾

للحديث :

ينبه الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى جسيم نعمة الله عز

وجل على الإنسان ، حيث بنى هيكله العظمي على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ونسق أعضائه ومفاصله على هذا النحو العجيب الذي يمكنه من أداء الأعمال والحركات المختلفة ، وكيف أنه سبحانه حفظ هذه الأعضاء من التلف والفساد إلى الأجل الذي قدره لها .

ويبين أن ذلك يقتضي من الإنسان المبادرة إلى شكر الله عز وجل على كل سلامي من هذه السلاميات ، وأن ذلك الشكر واجب متجدد عند بزوغ شمس كل يوم ، ثم يشير الرسول ﷺ إلى بعض مظاهر هذا الشكر وصوره على وجه التمثيل لا التعيين ، إذ هي لا تنحصر في الأمور التي وردت في الحديث ، فمنها :

١- أن يسعى في الصلح بين المتخاصمين وإزالة ما عساه أن يقع بينهم من عداوة وشحناء ، تجر عليهم كثيرا من المصائب والويلات ، وتدفعهم إلى ارتكاب ما يحرمه الدين ويأباه الخلق الكريم ، وفي الحديث الصحيح : « ألا أنبئكم بأفضل من درجات الصلاة والصيام والصدقة ؟ » قالوا : بلى ، قال : « إصلاح ذات البين بين المسلمين ، وفساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » . وقد أباح الشرع لمن يحاول بين الناس أن يكذب إذا

وجد أن ذلك قد يعينه في الوصول إلى غرضه ، فقد جاء في الحديث الصحيح : « ليس بالكذاب من أصلح بين الناس فقال خيراً ، أو نمي خيراً » .

وقد نوه القرآن العظيم بشأن الإصلاح بين المتنازعين ، وبين أن ذلك مما تقتضيه أخوة الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَاهِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [النساء : ٩٠] ، وقال تعالى في سورة النساء : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

٢- ومن ذلك أيضاً أن يعين بعض المسلمين بعضاً في كل ما يحتاج فيه إلى معونة ، وقد مثل النبي ﷺ لذلك بإعانتة على ركوب الدابة أو حمل متاعه عليها . ولا شك أن تقديم المعونة للمحتاج إليها من أفضل أعمال المروءة التي يهملها كثير من الناس ، وفي الحديث الصحيح :

« والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

٣- ومن مظاهر شكر الله على نعمته أيضاً أن يحفظ الإنسان لسانه ، حتى لا يصدر عنه إلا كل قول جميل ، فلا يستعمله إلا في ذكر الله عز وجل ، وإسداء النصيحة لكل مسلم ، وفي مدارس العلم ونشره ، وليحذر كل الحذر من أن يطلق لسانه العنان . فإنه مصدر لكثير من الموبقات ؛ كالكذب ، والغيبة ، والنميمة ، وشهادة الزور ، والفحش ، والبذاء ، وغير ذلك من عظام الذنوب .

وقد جاء في حديث معاذ المشهور أن النبي ﷺ قال له : « ألا أدلك على ملك الأمر كله ؟ » قال : بلى ، قال : « كفّ عليك هذا » . وأخذ بطرف لسانه ، فقال معاذ : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله ؟ قال : « ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم - أو قال : على وجوههم - إلا حصائد ألسنتهم » .

وفي الحديث الصحيح الآخر : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء تكفر اللسان ، تقول له : اتق الله ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وقد سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الأجوفان : الفم ، والفرج » .

٤- ومنها كذلك الخطأ إلى المساجد لأداء فريضة الله عز وجل ، وفي الحديث الصحيح : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط » .

وفي الحديث الآخر : « بشر المشائين إلى المساجد في الظلمات بالنور التام يوم القيامة » .

وقد ورد أن بني سلمة كانت بيوتهم بعيدة عن المسجد ، فأرادوا أن يبيعوها ويستبدلوا بها بيوتاً قريبة من المسجد ، فقال لهم النبي ﷺ : « يا بني سلمة ، ألا تحسبون أثاركم ؟ » .

ومنها كذلك إزالة كل ما يضر المارة ويؤذيهم من حجارة ، أو شوك ، أو قشر موز ، أو نحوه ، فهو صدقة لمن يفعله .

فحبذا لو تدبر المسلمون هذه المعاني الكريمة التي تضمنها هذا الحديث ، وأخذوا بها أنفسهم ؛ إذا لرأينا مجتمعاً سليماً متكافلاً لا أثر فيه لأثائية ، ولا موضع لفرقة أو بغضاء .

والله موفق .

محمد خليل هراس

الدعاء

بقلم الشيخ: محمد خليل هراس

(رحمه الله)

نائب ورئيس جماعة أنصار السنة سابقاً

الدعاء من أهم العبادات القولية التي لها أكبر شأن في الإسلام، وهو يرد في القرآن على نوعين: دعاء الثناء والعبادة، ودعاء المسألة والطلب، وتارة يرد به مجموعهما، والنوعان متلازمان، فإن دعاء المسألة معناه طلب ما ينفع الداعي، أو طلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك النفع والضرر فإنه هو المعبود حقاً، والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر، ولهذا انكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك له ضراً ولا نفعاً، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ (يونس: ١٠٦)، وهو في القرآن كثير جداً.

وإذا تأملنا الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الدعاء وجدناه في بعض الآيات يكون أظهر في أحد المعنيين منه في الآخر، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أظهر في دعاء العبادة؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة»، وكذلك كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لآلهتهم وأصنامهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر.

وأما ما هو أظهر في دعاء المسألة والطلب فمثل قوله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ. وَلَا تَسْجُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٥، ٥٦)، وقوله سبحانه حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْعَظْمِ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٣، ٤). وقوله كذلك: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

قَرِيبٌ أَحِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَأَنسِتُ جَبَابًا لِي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦)، فهو متضمن للنوعين جميعاً وبكل منهما فسرت الآية، فقليل: معناه أعطيه إذا سألني، وقيل: معناه أتيه إذا عبدني. والذي يهمنى الكلام عليه هنا هو دعاء المسألة

والطلب؛ لأنه أعظم ما وقع فيه النزاع بين أهل الحق وبين خصومهم ممن يدعون غير الله عز وجل ويسألونه ما لا يقدر عليه إلا الله أو يجعلون بين الله وبينهم واسطة في الدعاء يعتقدون أنها ترفع حوائجهم إلى الله وتشفع لهم عنده في قبول دعائهم وقضاء حوائجهم، وبدون تلك الواسطة لا يسمع لهم دعاء، ولا تقضى لهم حاجة، فإذا علمنا أن دعاء المسألة والطلب نوع من العبادة، بل هو مخ العبادة؛ لأنه لا يدعى ويسأل إلا من كان مالكا للنفع والضرر، ومن كان مالكا للنفع والضرر هو الذي يستحق أن يعبد، علمنا أن دعاء غير الله تعالى كما يفعله كثير من الناس عند أضرحة المشايخ من دعائهم لأصحابها واستغاثتهم بهم هو شرك صريح وتوجه بالدعاء الذي هو عبادة إلى غير الله.

وأما من دعا الله عز وجل بأحد من خلقه بمعنى أنه جعله شفيعاً إلى الله في أن يقبل دعاءه أو يقضي حاجته، معتقداً أنه لولا تلك الشفاعة لم يسمع دعاؤه ولم تقضى حاجته، وأن تلك الواسطة تأثيراً غيبياً في جلب الخير ودفع الضرر، فهذا أيضاً شرك يجب أن يستتاب صاحبه منه. واعتبر ذلك شركاً صريحاً، لا يقل في شناعته عن دعاء غير الله عز وجل. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر: ٣) فجمع لهم في هذه الآية بين أقبح وصفين وهما الكذب والكفر، وبيّن أن ذلك مانع من هداية الله لهم، وإذا كان هذا هو حكم الله في هؤلاء المشركين الذين ما كانوا يعبدون هذه الأصنام لذاتها، ولا كانوا يعتقدون أنها تملك لهم النفع والضرر، وإنما كانوا يتقربون بها إلى الله ويستشفعون بها عليه جل شأنه؛ لاعتقادهم أنها أقرب إلى الله منهم وأرجى إليه شفاعة، فماذا يكون حكم الله في هؤلاء العاكفين على هذه الأضرحة يوسعونها ويتمسحون بها تبركاً ويناجونها في ذلة وضراعة، ويسألونها كل حوائجهم؛ ملتصقين رضاها وبركاتهما، خائفين أشد الخوف من سطوها ونقماتها ومتملقينها بأنواع القرايين والنذور، وإذا سئل أحدهم أن يحلف بواحد منها - وكان كاذباً - تحاشى ذلك وخشى عاقبته، وإذا طلب منه الحلف بالله عز وجل فرح وجاءه الفرج، وبذل ذلك لمن سأل به بذل السماح؛ فاللهم إليك المشتكى، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ضوابط يجب ملاحظتها في توحيد الأسماء والصفات

بقلم العلامة الدكتور
محمد خليل هراس، رحمه الله.

وما لم يصرح الشرع بنفيه ولا بإثباته يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يريد به قائله، فإن أراد به معنى صحيحاً موافقاً لما ورد به النص قُبل ولكن لا يعبر عنه إلا بالفاظ النصوص ولا يعدل عنها إلا لضرورة، وإن أراد به معنى فاسداً وجب رده، والأصل في ذلك أن معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته، هي من شئون الغيب التي لا سبيل إلى إدراكها بالعقل وحده، فإن العقل لا يتجاوز بقدرته نطاق هذا الوجود الحسي الذي يمكن أن ينفذ إليه من طريق الحواس. أما شئون الغيب فلا مجال له أن يحكم عليها بمقتضى أقيسته وبراهينه. وإنما وظيفته أن ينظر فيما جاءت به النصوص من أخبار هذه الغيوب فيثبت ما أثبتته النصوص وينفي ما نفتته، من غير أن يضيف من عنده شيئاً لا في الإثبات ولا في النفي. ومهما توهم العقل أن صفة ما هي صفة كمال، لا يجوز له إثباتها ما لم تكن ثابتة بالشرع، ومهما توهم أن صفة ما هي صفة نقص لا يجوز له نفيها ما لم تكن منفية بالشرع، إذ لا عبرة في هذا الباب بوهم العقل فإنه قد أدى في كثير من الأحوال إلى نفي كثير من صفات الكمال في الكتاب والسنة.

ثانياً: يجب أن يكون معلوماً أن الله عز وجل لا يماثل شيئاً من خلقه ولا يماثله شيء، فكل ما ثبت له من الأسماء والصفات فمعناه يختص به لا يشترك فيه أحد.

إذا كان توحيد الأسماء والصفات يقوم على أن الله سبحانه مختص بما له من الأسماء والصفات، لا يشترك فيها أحد من خلقه، وعلى وجوب إثبات كل ما أثبتته الله لنفسه، أو أثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تمثيل ولا تعطيل. فإن هناك قواعد عامة في هذا الباب يجب رعايتها حتى نكون بمنجاة من التورط في ورطات الضلال التي وقعت فيها الفرق المختلفة. فمنهم من غلا في الإثبات حتى مثل الله بخلقه، ووقع في حماة التشبيه. ومنهم من غلا في النفي والتعطيل حتى أدى به ذلك إلى جحد الذات نفسها واعتبارها عدماً لا وجود له. ومنهم من أثبت الأسماء دون الصفات تحكما بلا دليل. ومنهم من أثبت بعض الصفات دون بعض، جرياً وراء وهم فارغ لا أصل له.

ولم يكن لهذا الضلال كله من سبب إلا الإعراض عن هدي الكتاب والسنة، والتصرف في نصوصهما بالتأويلات الفاسدة، والجري وراء الظنون الكاذبة، بدعوى أنها عقليات لا تقبل النقض. والقول على الله سبحانه بلا علم.

أما تلك القواعد والأسس التي تجب ملاحظتها في هذا الباب فهي:

أولاً: لا يصح أن يسمى الله عز وجل إلا بما سمي به نفسه، أو سماه به رسول الله ﷺ، ولا أن يوصف كذلك إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فإن أسماء الله تعالى كلها توقيفية لا يجوز إطلاق شيء منها على الله في الإثبات أو في النفي إلا بإذن من الشرع.

نعم قد يكون هناك أسماء مشتركة بين الله وبين خلقه أو بين صفاته وصفات خلقه، فهذه يجب أن لا توهم تشابهاً في المسمى. لأن الاشتراك إنما هو في محض الاسم وفي القدر المشترك الذي يدل عليه عند الإطلاق، وذلك لا يوجب مماثلة أصلاً بين الله عز وجل وبين من يسمى بهذه الأسماء أو يوصف بهذه الصفات من المخلوقين.

فتسمية الله تعالى قادراً لا توجب مماثلة قدرة الله لقدرة العبد، وكذا تسميته عالماً ومريداً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً وغير ذلك من أسمائه الحسنى التي قد تطلق على غيره لا توجب أن علمهم كعلمه ولا إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته.. إلخ.

والأصل في ذلك أن ما يوصف به العباد إنما يتعين ويتخصص بالإضافة فإن أضيف إلى الله كان معنى مختصاً به لا يليق بغيره، وإن أضيف إلى المخلوق كان معنى مختصاً به يتزده الله عز وجل عن الاتصاف به.

وفي تقرير هذه القاعدة على هذا الوجه حل لإشكالات كثيرة، فإن الذين نفوا عن الله عز وجل ما يطلق على خلقه من الأسماء والصفات وتناولوا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، إنما فعلوا ذلك لتوهمهم أن إثبات هذه الصفات يقتضي المماثلة بين الله وخلقهم فعملوا خوف التشبيه. ولو أنهم أدركوا أن لهذه الألفاظ إذا أطلقت على الله معاني أخرى غير التي تناسب المخلوق، لما وقعوا في حماة التعطيل، ولكن من يضل الله فما له من سبيل. وبناء على هذه القاعدة العظيمة يمكن أن نثبت لله كل ما ورد به الكتاب العزيز من صفات الاستواء والمجىء والإتيان يوم القيامة والتكليم والنداء والمناجاة بأصوات مسموعة وحروف مفهومة. والرحمة والحكمة. والرضى والغضب. والمحبة والكراهة. واليدين والعينين والوجه أو غيرها، وكذلك نثبت له ما وردت به

السنة الصحيحة من صفات النزول إلى سماء الدنيا كل ليلة. والدنو من الحجاج عشية عرفة. والفرح بتوبة عبده حين يتوب والضحك وغيرها. ما دمننا نعتقد أن كل ما ثبت لله من هذه الصفات هو غير ما ثبت منها للمخلوقين. ثالثاً: أن كل ما ثبت لله من الصفات الوجودية فهو ثابت له على جهة الكمال المطلق الذي هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وراءه كمال آخر ولا يمكن أن يعرض لها النقص بوجه من الوجوه فهو سبحانه له المثل الأعلى في كل ما ثبت له من الأسماء والصفات، ولا يمكن أن يكون هذا المثل لأحد سواه. فصفاته وجدت كاملة من الأزل إلى الأبد، لم تكن ناقصة ثم كملت كما هو الحال في صفات غيره. ولا يمكن أن يطرأ عليها النقص الذي قد يطرأ على صفات المخلوقين. فحياته سبحانه أكمل حياة لأنها من لوازم ذاته، فهي أقدم حياة وأدوم حياة وأقوى حياة. ولا يمكن أن تسبق بموت ولا أن يلحقها موت. قال تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾.

وفي الحديث: «أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون».

وكذلك كل ما تستلزمه هذه الحياة الكاملة من الصفات هو ثابت على أكمل وجه وأتمه. فقدرته أكمل قدرة لا يعجزه شيء ولا يصيبه لغوب أو إعياء، وعلمه أوسع علم وأشمل، فهو محيط بجميع المعلومات لا يمكن أن يند عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وإرادته أتم إرادة فلا يقع في ملكه إلا ما يريد، وسمعه وسع الأصوات كلها مهما خفت فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. قال تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ وبصره أكمل الأبصار رؤية، فلا تغيب عنه ذرة مهما

(٢) وثانيهما صفات أفعال لا تكون لازمة لذاته بل يجوز خلو الذات عنها، وتتعلق بها مشيئته وقدرته، فهو يحدثها سبحانه في ذاته شيئاً بعد شيء حسب اقتضاء حكمته، ولكن ليس لما يحدث منها في ذاته ابتداء بل تصدر أفرادها على التعاقب في الوجود متسلسلة شيئاً بعد شيء دون أن تنتهي السلسلة، لا في جانب الأزل، إذ لا ابتداء لها، ولا في جانب الأبد حيث لا انتهاء لها. قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ ولنضرب لذلك مثلاً بصفة الكلام، فإن الكلام منه صفة ذات وهو: قدرته تعالى على أن يتكلم متى شاء وكيف شاء، ولكن صدور الكلام منه بالفعل لا يكون إلا حادثاً بمشيئته وقدرته. إذ لا يعقل أن يكون كلم موسى في الأزل وقال له ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ بل كلمه حين جاء الميقات كما قال تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾.

وكذلك صفة الإرادة، لا يعقل أن يكون أراد الأشياء كلها في الأزل وإلا لوجدت كلها في الأزل، بل كل مراد من المراتب إنما يقع بإرادة جزئية خاصة به كما قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وهكذا في جميع صفات الأفعال لا توجد أفرادها مجتمعة في الأزل بل لا توجد إلا على التعاقب فيما لا يزال. وهذا البحث مبسوط في كتابي (ابن تيمية السلفي) وفي كثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فليرجع إليه من شاء.

أسأل الله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

دقت، ولا يؤثر فيه بُعد ولا يحجبه جدران ولا أستار قال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ وكلامه أتم كلام وأبلغه، فلا يمكن أن يكون في كلامه خفاء أو قصور. قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ وهكذا الحال في جميع الصفات، لا يجوز أن تثبت له إلا على هذا الوجه من الكمال، وأما ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، فإن هذا النفي بمجرد ليس كمالات، إذ الكمال لا يكون إلا أمراً موجوداً، وأما الأمور السلبية أو العدمية فلا تكون كمالات إلا إذا تضمنت أمراً وجودياً.

ولهذا لم يرد في الكتاب ولا في السنة نفي نقص عن الله عز وجل إلا ويراد به إثبات ما يضاد ذلك النقص من صفات الكمال. فنفي العجز في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء﴾ إنما هو لإثبات كمال قدرته، ونفي السنّة والنوم في قوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ إنما يراد به إثبات كمال حياته وقيوميته. ونفي الظلم في قوله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ إنما هو لإثبات كمال عدله وحكمته. وهكذا في بقية الصفات.

ولهذا أيضاً لم يرد النفي في الكتاب ولا في السنة إلا مجعلاً في أغلب أحواله، كما في قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿هل تعلم له سمياً﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾.

وأما صفات الإثبات فيكثر ورودها على جهة الاستيعاب والتفصيل.

رابعاً: أن صفات الله تعالى نوعان:

(١) أحدهما صفات ذات وهي التي تكون لازمة لذاته لا تنفك الذات عنها أزلاً وأبداً، ولا يتعلق شيء منها بمشيئته وقدرته. وذلك مثل صفات الحياة والعلم والقدرة والعزة والكبرياء والملك والمجد والعظمة والقوة ونحوها.

من عقيدة القرآن والسنة

الرحمن على العرش استوى

بقلم / د. محمد خليل هراس - رحمه الله -

بين يدي المقال

في أوائل القرن الثاني من الهجرة ظهر رواد المذاهب المنحرفة في فهم العقيدة الإسلامية التي خالفت أهل السنة والجماعة متأثرة بما نقل إليها من فلسفات اليونان وسائر أهل الكفر فتكون منها منهجان منحرفان:

الأول: مذهب التأويل الذي يقول به المعتزلة حيث يجعلون العقل حاكما على نصوص الشرع فيوجبون تأويل نصوص الشرع لتوافق - كما يزعمون - العقل.

ولست أدري أي عقل يحاكم النص الشرعي؟ والعقول تتفاوت بل ما فائدة الوحي إذا كان العقل هو الحاكم عليه؟

الثاني: مذهب المشبهة وهم الذين بالغوا في إثبات الصفات حتى شبهوا الخالق سبحانه بالمخلوق.

ثم ظهر مذهب ثالث تزعمه (عبد الله بن كلاب) حاول التوفيق بين مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة، وإلى هذا المذهب ينتسب الأشاعرة اليوم ذلك لأن الأشعرى كان في آخر حياته على مذهب أهل السنة والجماعة وله في ذلك كتاب الإبانة ومقالات الإسلاميين.

ونحن ننقل هنا مقالا جيدا للشيخ الجليل محمد خليل هراس رحمه الله حول مذهب أهل السنة والجماعة في الاستواء.

يقول الشيخ:

العلم أن أهل الإثبات بحمد الله عندهم من هذه النقول ما يملأ مجلدات، وهم لا ينقلون إلا عن كل إمام ثقة في علمه ودينه من سلف الأمة، الذين هم أكملها علما وإيمانا، وأبرها قلوبا وأقلها تكلفا وأهداها سبيلا.

وإليك أيها القارئ طائفة من الحجج

والبيانات التي يعتمد عليها أهل الحق والإثبات في هذا الباب لكي تدرك الفرق بين ما يسوقه المعطلة من شبه واهية ساقطة، وبين ما يستند إليه أهل الحق من أدلة ناصعة قاطعة.

فمن الكتاب العزيز نسوق هذه الآيات البيئات التي لا تقبل جدلا ولا تحتل تأويلا إلا عند من في قلوبهم زيغ، ممن يصرفونها عن معانيها المفهومة منها، إلى ما لا تحتمله من المعاني الفاسدة، جريا وراء أهوائهم، فيحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون على الله بغير علم.

١ - أخبر الله عز وجل في سبعة مواضع من كتابه، أنه استوى على العرش، ولا معنى لذلك أبدا إلا علوه وارتفاعه عليه، كما فسره بذلك مجاهد وأبو العالية وغيرهما من أئمة التفسير، كما رواه عنهم الإمام البخاري في صحيحه عند رده على الجهمية والمعطلة. بالقصور فإن اللغة التي نزل بها القرآن لم تستعمل قط لفظ الاستواء متعديا بعلی إلا بمعنى العلو والارتفاع ونجن نتحدى أن يأتي أحد بنقل صحيح عمن يعتقد بهم في لغة العرب أنه ذكر للاستواء معنى غير ذلك.

وأما تأويله بالاستيلاء على العرش استنادا إلى قول الشاعر المجهول:

قد استوى بشر على العراق

بغير سيف أو دم مهراق

فهو من أسمى التأويلات وأشدّها فسادا إذ يقتضي أن العرش كان في حوزة غيره سبحانه، فلما خلق السموات والأرض ملكه واستولى عليه، مع أنه سبحانه لم يزل مستويا على العرش وعلى الملك كله منذ خلقه، وأيضا لو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء كما يزعمون لما كان للاستواء معنى خاصا بالعرش، بل لجاز أن

العقلاء أن يقول أنا في البيت أو في المسجد من غير أن يكون فيه؟ وما الذي يدعو سبحانه إلى أن يثبت لنفسه ما ليس بثابت، بل ما هو في زعمكم مستحيل الثبوت؟ ومن العجيب أن هاتين الآيتين قد سيقنا في معرض التهديد والوعيد لإحداث الخشية والمهابة، فإذا لم يكن هو سبحانه في السماء كما أخبر، فأى معنى لذلك التهديد وهل يبقى له في النفس أثر؟

٥ - قال الله تعالى في شأن الملائكة ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ولا شك أن لفظ الفوق إذا جاء مجرورا (بمن) لا يفهم منه إلا فوقية المكان، كما في قوله تعالى: ﴿إذ جاعوكم من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ وكقوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ الآية وإذا لم تكن هذه فوقية مكان فما عسى أن تكون؟ لعلمكم تقولون أنها فوقية قهر وقدر، فما الموجب لصرفها عن حقيقتها؟ وأي مدح في تلك الفوقية مع أن قدرته على الخلق كلهم ليست محل شك.

الم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا
٦ - أخبر الله سبحانه عن بعض الأشياء أنها عنده، كقوله عن الملائكة ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ ومن عنده لا يستكبرن عن عبادته ولا يستحسرون.

وكقوله عن أهل الجنة ﴿إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ وكقوله حكاية عن امرأة فرعون ﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة﴾ فما معنى هذه العندية إذا لم تقتض المجاورة والقرب؟ وإذا كانت كل الأشياء سواء بالنسبة إليه سبحانه، لا تفاوت بينها بالقرب والبعد، كما يزعم هؤلاء المعطلة: أن محمدا وهو عند سدة المنتهى لم يكن أقرب إلى الله من يونس وهو في بطن الحوت، فكيف يصح تخصيص بعض الأشياء بكونها عنده؟

٧ - قال الله تعالى في شأن فرعون ﴿وقال

يقال استوى على الأرض، كما يقال استوى على العرش. إذ هو مستول عليها كاستيلائه على العرش.

وليس في استيلائه على العرش معنى يمدح به، فإن العرش لا يعدو أن يكون من جملة مخلوقاته، وإنما يظهر المدح في ارتفاعه وعلوه عليه لتدبير أمور خلقه، كما قال من سورة يونس عليه السلام (ثم استوى على العرش يدبر الأمر).

٢ - سمي الله عز وجل نفسه في كتابه بأنه (العلي والأعلى والمتعال) وإطلاق هذه الأسماء يقتضي ثبوت كمال العلو له سبحانه، بأن يكون العلو ثابتا من كل وجه فيتناول علو ذاته فوق خلقه، وعلو مكانته وقدره وعلو غلبته وقهره. فمن خص علوه ببعض هذه المعاني دون بعض فقد قيد ما أطلق الله، ونقص من معنى العلو الذي هو صفة كمال بغير حجة.

٣ - أخبر الله عز وجل أن بعض الأشياء تنزل من عنده كقوله في شأن القرآن الكريم ﴿قل نزل به روح القدس من ربك بالحق﴾ وقوله ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ كما أخبر أن بعض الأشياء تصعد إليه، كقوله سبحانه ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ ﴿تخرج الملائكة والروح إليه﴾ ﴿يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي﴾ ﴿بل رفعه الله إليه﴾ فكيف يتحقق أن يكون سبحانه مبدأ لما ينزل أو منتهى لما يصعد، إذا لم يكن عاليا على خلقه. وإذا كان لا يليق بأحد منا أن يقول لغيره أنت إلي في مكان كذا، ثم يذهب فلا يجده هناك، ليس ذلك غشا وتضليلا يتنزه عنه أحكم الحاكمين.

٤ - أخبر الله سبحانه أنه في السماء بقوله في سورة الملك ﴿أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور. أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير﴾ فهل هناك أصرح في إثبات علوه تعالى على خلقه، من إخباره عن نفسه بأنه في السماء أي في تلك الجهة؟ وهل يليق بأحد من

ذلك عليّ، فقلت يا رسول الله أفلا أعتقها؟ فقال: دعها، فدعوتها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.

٢ - ومنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: اتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون» متفق عليه.

٣ - حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: «ألا هل بلغت؟ فقالوا نعم، يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول: «اللهم اشهد» أخرجه مسلم.

٤ - حديث أبي هريرة «إن الله لما قضى الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: «إن رحمتي سبقت غضبي».

٥ - حديث أبي سعيد الطويل في الخوارج قال: قال رسول الله ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

٧ - حديث أنس بن مالك أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: «زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات». وفي لفظ أنها قالت للنبي ﷺ «زوجنيك الرحمن من فوق عرشه». صحيح رواه البخاري.

٨ - حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها، أخرجه مسلم.

٩ - حديث أبي هريرة أيضا قال رسول الله

فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وأناي لأظنه كاذبا ﴿ فمن الذي أخبر فرعون بأن إله موسى في السماء، حتى أمر هامان ببناء الصرح ليصل إليه؟ لا شك أن الذي أخبره بذلك هو موسى عليه السلام نفسه، بدليل قول فرعون بعد ذلك ﴿ وإني لأظنه كاذبا ﴾ أي فيما أخبرني به من أن إلهه في السماء. ولا يعقل أن يكون فرعون فعل ذلك من عند نفسه لأنه نفى أن يكون معه إله غيره، فكيف يفترض وجود إله أعلى منه في السماء؟

٨ - أخبر الله عز وجل أنه يجيء

يوم القيامة لفصل القضاء بين عباد، كما في قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن ياتيهم الله في ظل من الغمام والملائكة وقضي الأمر ﴾ وكقوله: ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾.

فمن أين يجيء الرب جل شأنه، هل يجيء من أمامهم أم من خلفهم أم عن أيمنهم أم عن شمائلهم أم من تحتهم؟

وإذا كانت كل هذه الجهات الخمس لا تصلح أن يأتي منها الرب فلم يبق إلا أن ياتيهم من فوقهم سبحانه وتعالى.

ونكتفي بهذا القدر من آيات الكتاب العزيز ففيه لطالب الهدى كفاية ومقنع. وننتقل إلى السنة المطهرة التي أثبتت ما أثبتته الكتاب، ولم يرد فيها أصلا نفي أو تاويل لما ورد فيه من الصفات. وسنجتزئ منها بالصحيح خوفا من التطويل وحتى لا نفتتح المجال لقال أو لقليل.

١ - منها حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: «كانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لي فاطلقتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة، وأنا رجل من بني آدم، فأسفت فصككتها فاتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فعظم



يجد مرا به الماء الزلالا
وأورد بعد ذلك ما يتسع له المجال من كلام
الصحابه والتابعين ومن بعدهم من أئمة الهدى
الذين هم أعرف بالله ودينه وكتابه، وأشد
تنزيها له من هؤلاء النافين الجاحدين.

١ - أخرج البخاري في تاريخه من حديث
نافع عن ابن عمر قال: «لما قبض رسول الله ﷺ
قال أبو بكر رضي الله عنه «أيها الناس: إن كان
محمد إلهكم الذي تعبدون فإنه قد مات، وإن كان
إلهكم الذي في السماء، فإن إلهكم لم يموت».

٢ - قال عمر رضي الله عنه في شأن خولة
بنت ثعلبة «هذه امرأة سمع الله شكواها من
فوق سبع سموات».

٣ - قال عبد الرحمن بن غنم: سمعت عمر بن
الخطاب يقول: «ويل لديان الأرض من ديان
السماء يوم يلقونه، إلا من أمر بالعدل فقضى
بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا
على رغبة ورهبة، وجعل كتاب الله مرآة عينيه».

٤ - روى عاصم عن زر بن حبیش عن ابن
مسعود قال «العرش فوق الماء والله فوق العرش
لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

٥ - وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه
قال: «من قال سبحان الله والحمد لله والله أكبر،
تلقاهن ملك فعرج بهن إلى الله فلا يمر بملا من
الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن
وجه الرحمن عز وجل».

٦ - وصح عنه كذلك أنه قال: «إن العبد ليهم
بالأمر من التجارة والإمارة حتى إذا تيسر له،
نظر الله إليه من فوق سبع سموات، فيقول
للملائكة اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته
النار».

٧ - وصح عن عائشة أنها قالت يوم قتل
عثمان: «وايم الله إني لأخشى لو كنت أحب قتله
لقتلت، ولكن علم الله فوق عرشه أنني لم أحب
قتله».

٨ - روى الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي
الله عنها في قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش
استوى﴾ قالت كيف غير معقول والاستواء
غير مجهول والإقرار به إيمان والجحود به كفر،

ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا
يصعد إلى الله إلا الطيب، فإنه يتقبلها بيمينه
ويرببها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى
تصير مثل الجبل» أخرجه البخاري.

١٠ - حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي
ﷺ قال لسعد بن معاذ يوم بني قريظة: «لقد
حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات».

١١ - حديث قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال
في حديث الشفاعة الطويل: «فاستأذن على ربي
في داره فيؤذن لي عليه».

وفي رواية «فأتى باب الجنة فيفتح لي فاتى
ربي تبارك وتعالى وهو على كرسيه أو سريره
فأخبر له ساجدا».

١٢ - حديث أبي هريرة وغيره في نزول الرب
تبارك وتعالى وهو حديث متواتر ولفظه: «ينزل
ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين
يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «من يدعوني
فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من
يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال هكذا حتى يطلع
الفجر». وقد ورد في بعض الروايات «لا أسأل
عن عبادي غيري» فهل يعقل نزول. إلا ممن هو
عال؟ لكن بعض العلماء يمارون في حديث
النزول ويعترضون عليه بأن في كل لحظة من
الزمان ثلث ليل آخر، فهلا اعترضوا بذلك على
قائله؟ عليه الصلاة والسلام!

وإذا كان هذا هو مبلغ إيمان هؤلاء بكلام
نبيهم، فماذا نملك نحن لهم؟ اللهم إنها فتنتك
تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء.

١٣ - حديث الإسراء والمعراج، وهو متواتر
أيضا، وفيه «ودنا الجبار فتدلى حتى كان قاب
قوسين أو أدنى» وفيه أيضا أن موسى قال
لنبيينا عليهما الصلاة والسلام «ارجع إلى ربك
فأسأله التخفيف» وأن النبي ﷺ قال: «مازلت
أرجع بين ربي وبين موسى».

ونجتزئ بهذا القدر من السنة المطهرة،
وكلها أحاديث متونها وأسانيد كالأشمس في
الإشراق، ولكن المعطل الجاحد بما في قلبه من
غرض التعطيل لا يسيغها بل يشرق بها.

ومن يك ذا فم مر مريض

أقرب من كل شيء، وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه.

١٦ - روي عن سفيان الثوري أنه قال في أحاديث الصفات «أمرها كما جاءت بلا كيف».

١٧ - روى عبد الله بن رافع عن مالك إمام دار الهجرة أنه قال: «الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء».

١٨ - روي عن علي بن الحسن بن شقيق أنه قال: قلت لعبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربنا عز وجل؟ قال في السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: أنه هاهنا في الأرض.

١٩ - روي من طريق صحيح عن الشافعي رحمه الله أنه قال: «القول في السنة التي أنا عليها ورأيت الذين رأيتهم، مثل سفيان ومالك وغيرهما: إقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء».

٢٠ - روى أبو بكر الخلال قال: قيل لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل رحمه الله: الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وقدرته وعلمه في كل مكان؟ قال نعم هو على عرشه ولا يخلو شيء من علمه.

ويتعب القلم وينفذ المداد لو حاولنا إحصاء كل ما روي عن هؤلاء الأئمة الأعلام، حفاظ السنة وقامعي البدعة، فلنكتف بهذا القدر الآن. فإنما أردنا به أن يتبين طلاب الحق أين هو؟ أهو في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام صحابته والتابعين لهم، وأئمة الهدى في كل عصر وزمان؟ أم هو في قول جهنم بن صفوان وأشباعه وتلاميذه في التعطيل والنكران، والله هو وحده المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا القول محفوظ كذلك عن ربيعة الرأي ومالك بن أنس وغيرهما.

٩ - كان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول: «حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرأة من فوق سبع سموات».

١٠ - قال نوف البكالي - من وعاظ التابعين -: «إن موسى عليه السلام لما سمع كلام الله قال: من أنت الذي يكلمني؟ قال: أنا ربك الأعلى».

١١ - وروى اللالكائي عن ثابت البناني قال: «كان داود يطيل الصلاة ثم يرفع رأسه إلى السماء ويقول إليك رفعت رأسي، نظر العبيد إلى أربابها، يا ساكن السماء».

١٢ - روى مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالى:

﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ قال: «هو على عرشه وعلمه معهم - وفي لفظ - هو فوق العرش وعلمه معهم حيث كانوا».

١٣ - قال الحكم بن عبد الله البلخي صاحب الفقه الأكبر:

سالت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض. فقال قد كفر. لأن الله تعالى يقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وعرشه فوق سمواته. فقلت: إنه يقول: أقول على العرش استوى ولكن قال: لا يدرى العرش في السماء أو في الأرض. فقال إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر.

١٤ - قال الأوزاعي إمام أهل الشام «كنا، والتابعون متوافرون، نقول إن الله عز وجل فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته».

١٥ - روى البيهقي بإسناده عن مقاتل بن حيان وهو إمام ثقة في قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر﴾ قال هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والظاهر فوق كل شيء، والباطن



الدعاء كما جاء في السنة المطهرة

بقلم الشيخ/ محمد خليل هراس رحمه الله

إذا كانت آيات الكتاب العزيز قد تضافرت على وجوب إخلاص الدعاء لله سبحانه، والتوجه إليه وحده رغبة ورهبة، فقد جاءت السنة المطهرة بتأكيد ذلك المعنى وتشديد النكير على كل من يجعل لله نداً، يتوجه إليه في دعائه، ويطلب منه ما لا يقدر عليه غيره، ومن ذلك الحديث المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ، فقال لي: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، طويت الصحف وجفت الأقلام».

وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». ومعنى الند: المساوي الذي يُجعل له من الحق في الدعاء والعبادة مثل ما لله عز وجل. وقد جاء في حديث آخر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه من

لم يسأل الله يغضب عليه». [صحيح الترمذي] (٢٦٨٦ج).

وعلى الجملة: فالدعاء من أعظم العبادات القولية والقلبية التي يجب إخلاصها لله جل ذكره، وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام، بل ومن كل دين بعث الله به رسلاً وأنزل به كتبه، ولكن الشياطين تلبس على الناس في هذه العبادة، وتزين لهم أن يتخذوا فيها الوسائط والشفعاء التي تقربهم من الله زلفى وترفع إليهم أدعيتهم وحوائجهم، ومن جملة تلبيسه عليهم في هذا الباب أن يقول لهم: إنكم قد أسرفتم على أنفسكم في ارتكاب الذنوب والمعاصي التي أبعدتكم عن الله عز وجل وجعلت بينكم وبينه حجاباً غليظاً فلا يعقل أن تفتح لكم أبواب السماء، ولا أن يستجاب لكم دعاء حتى تتوسلوا إلى الله فيه ببعض الصالحين من عباده، وبذلك صرفهم عن ابتغاء الوسيلة إلى الله بما شرعه هو وجعله وسيلة مقبولة عنده، لا ابتداء وسائل لم يأذن بها ولم ينزل بها من سلطان، وينكشف ذلك التلبيس بأنه إذا كان اتخاذ الوسائط مانعاً من إجابة الدعاء كان الشرك أولى بذلك، ولهذا أنكر الله على المشركين قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣] قولاً من عند أنفسهم بلا حجة ولا دليل.

وأما ما يشغب به القبوريون في هذا الباب من آثار فلا يصح منها شيء، اللهم إلا حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما وقوله: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فقتسقنا، وإنا نتوسل إليك الآن بعم نبينا فاسقنا. فيسقون»، على أن الحديث حجة عليهم لا لهم، فإن عمر رضي الله عنه لم يتوسل بذات العباس وشخصه، وإنما توسل بدعائه، فإن التوسل بالذوات لو كان جائزاً لما عدل عمر ومن معه من المهاجرين والأنصار عن التوسل برسول الله ﷺ إلى التوسل بالعباس، لأن ذات رسول الله ﷺ أفضل قطعاً من ذات العباس، وذاته ميّناً كذاته حياً، ولكن عمر أدرك أن ما كان يملكه الرسول ﷺ من الدعاء حال حياته في الاستسقاء وغيره قد بطل بموته، فقدم الصق الناس رحماً به وهو عمه صنو أبيه لينوب عنه في هذا المقام، وقد

حفظ من دعاء العباس يومئذ قوله: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة، وهذه نواصينا إليك بالذنوب، وأيدينا إليك بالتوبة». ولا أطيل الكلام في هذا الموضوع أكثر من ذلك، فإن الحق فيه أظهر من أن يخفى، ومن أراد الوقوف على جلية الأمر فيه فليرجع إلى ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من علماء السنة الذين بسطوا القول في هذه المسألة، غير أنني سأنقل هنا - تكميلاً للفائدة - ملخصاً لما جاء في رسالة «زيارة القبور» لابن تيمية من أحكام تتعلق بذلك الأمر، عسى أن يعتبر بها أولئك الذين يروجون لهذه الضلالة فيفقيئوا إلى الحق والهدى ويتركوا سبيل اللجاج والعناد.

قال رحمه الله: «وتفصيل

القول: أن مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى مثل أن يطلب شفاء مريضه من الأدميين والبهائم، أو وفاء دينه من غير جهة معينة، أو عافية أهله وما به من بلاء الدنيا والآخرة وانتصاره على عدوه وهداية قلبه وغفران ذنبه أو دخول الجنة أو نجاة من النار أو أن يتعلم العلم والقرآن

أو أن يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكي نفسه وأمثال ذلك فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله ولا يجوز أن يقول ملك ولا نبي ولا شيخ سواء كان حياً أو ميتاً اغفر ذنبي، ولا انصرني على عدوي، ولا اشف مريضي ولا عافني أو عاف أهلي أو دابتي، وما أشبه ذلك، ومن سال ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك به.

وأما من يأتي إلى قبر نبي أو صالح أو يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات:

أحدها: أن يسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه، أو يقضي دينه، أو ينتقم له من عدوه، أو يعافي نفسه وأهله

ودوابه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل.

وإن قال: أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور؛ لأنني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى، فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر الله عن المشركين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، ثم يقال لهذا المشرك: أنت إذا دعوت غير الله فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك وأقدر على عطاء سؤلك وأرحم بك فهذا جهل وضلال وكفر، وإن كنت تعلم أن الله أعلم وأقدر وأرحم، فلم عدلت عن سؤاله إلى غيره؟

وإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته، فهذا هو القسم الثاني وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه ولكن تطلب أن يدعو لك فهذا مشروع في الحي، أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول: ادع لنا ولا أسأل لنا ربك.

وأما القسم الثالث وهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك، افعل بي كذا وكذا فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء. وبعد فهل أن لهذه الأمة أن تتخلص من أحوال تلك الوثنية المدمرة التي تتمثل في تلك الأقوال والأفعال المنكرة التي يرتكبها الناس عند أضرحة المشايخ من الاستغاثة بها، وطلب الحاجات منها، وتقبيل الأرض عندها، ووضع الخد عليها، والتزامها، وغير ذلك مما رجع بنا إلى جاهلية شر من الجاهلية الأولى، إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.



من روائع الماضي

توحيد الله عز وجل العبادات المالية

بقلم: د. محمد خليل هراس رحمه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على

رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه،

أما بعد:

من تمام الكلام على توحيد الإلهية

الكلام عن العبادات المالية التي تعبدنا

الله بها في أموالنا من الصدقات والذبايح

والنذور ونحوها، وهذا النوع من

العبادات قد دخله من ألوان الشرك

وصوره ما يصعب حصره.



التوحيد العدد العاشر - السنة الثانية والثلاثون

٣٨

فإن كثيراً من الناس يجهلون أن لله عليهم عبادة في أموالهم التي هي من رزقه وفصله، وقد لبس عليهم الشيطان في أمرها كما لبس عليهم في غيرها بل أشد، فالقى في روعهم أن هذه الأموال إنما سيقَّت إليهم ببركة الشيخ «فلان»، أو بسبب دعائه وشفاعته، وإنه هو القائم على حراستها وتنميتها فهي ستبقى ما بقي الشيخ راضياً وهو لا يرضى طبعاً حتى يجعلوا له في هذه الأموال نصيباً مفروضاً، فتراهم ليسوا على شيء أحرص منهم على سوق هذه الأموال من النذور الذبايح إلى أضرحه هؤلاء المشايخ، وعلى شهود المهرجانات الشريكة التي تقام لهم.

وإذا سولت لأحدهم نفسه أن ياكل النذر الذي نذره لواحد من هذه الأضرحة فإنه يبقى طيلة عامه متوقفاً للمصائب تحقيق به على يد الشيخ صاحب النذر لا سيما إذا كان الشيخ غصباً كما تزعمه العامة في (أبي العينين الدسوقي)، فإذا جرى على هذا الأكل للنذر شيء من قدر الله عز وجل، من فقد مال، أو ولد، أو نحو ذلك، أيقن أن الذي أصابه إنما هو بسبب غضب الشيخ عليه لعدم وفائه بالنذر، وهكذا يعيش هؤلاء التعساء من عباد القبور في هم ناصب وقلق واصب لأنهم لا يدرون مواقع الرضا والغضب من نفوس هؤلاء الموتى وأيهم أحق أن يرضوه، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتُخَطِّفُهُ الْطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

ونرى بعد هذه المقدمة الطويلة أن تكشف للناس عن هذه التلبيسات التي يلبس بها عليهم شياطين الإنس والجن وأن نقول كلمة الحق في هذه المسائل إغذاراً إلى الله عز وجل ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ويكفيها في هذا المجال أن نثبت أن هذه الأمور من جملة العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه، فإنه إذا ثبت ذلك علم قطعاً أنه لا يجوز صرفها إلى غير الله كما هو الشرط في سائر العبادات، أما الصدقات فلا يشك مسلم في أنها من أعظم القربات إلى الله عز وجل وقد قرنها الله بالصلاة في كثير من آيات الكتاب الحكيم وجعلها من أعظم خصال الإيمان ووعد عليها بجزيل الثواب، بل وسماها قرضاً ووعد عليه

أضعافاً كثيرة.

ويطول بنا القول لو تتبعنا ما ورد في شأن الصدقة من الآيات والأحاديث وهو أمر معلوم لكل من له إلمام بنصوص الوحيين، ولكن الذي يحتاج للتنبيه عليه هو ما يعرض للصدقة من أعمال تحبطها وتبطل ثوابها وذلك مثل الرياء، والمن بها على الأخذ، والاستطالة بها عليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُطْلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُثْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

ومن ذلك أيضاً أن يتحرى بصدقته الفقراء المجاورين عند الأضرحة لما يلتصقه من بركة أصحابها، وأن يقيم لهم بها موالد أو يشتري لهم بها استاراً أو بسطاً أو سرجاً أو نحو ذلك مما تزين به هذه الأضرحة ظناً منه أن تلك قرب يتقرب بها إلى الله عز وجل فلا يزداد بها من الله إلا بعداً.

وهذه حال كثير من الناس لا يتحرون بصدقاتهم إلا هذه المواضع مما يدل على أنهم لم يقصدوا بها وجه الله بل إنما قصدوا إلى إرضاء أصحاب هذه الأضرحة، بل قد يترك بعضهم الفقراء من ذوي قرابته أو أهل بلده ممن هم أحق بصدقته ويدفعها إلى من لا يستحقها من سدنة هذه الطواغيت والعاكفين عليها، وأما النذر فهو في الأصل غير مشروع بل قد ورد النهي عنه، قال ﷺ: «لا تنذروا فإن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من البخيل». ولكنه إذا نذر لزمه الوفاء وصار النذر حينئذ قربة وعبادة لا تنبغي إلا لله، وعلى هذا يحمل قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، وقوله من سورة الحج: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، وقوله من سورة الدهر في صفة الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

وفي الحديث الصحيح: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه». وبهذا يتبين أن ما ينذره بعض الجهلة لأصحاب الأضرحة من نقود وشموع ونحوها هو نذر باطل وشرك صريح، وأنه لا يلزم أحداً الوفاء بهذا النذر إذ لا وفاء لنذر في معصية الله عز وجل.

وقد روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «إني نذرت أن

أنحر إبلاً بمكان كذا، فسأل النبي ﷺ عن هذا المكان هل كان فيه صنم يُعبد؟ فقليل: لا. ثم سأل: هل كان يُقام فيه عيد من أعياد الجاهلية؟ فقليل: لا. فقال للرجل: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء بنذر في معصية، ولا فيما لا يملك ابن آدم».

ومن العجيب أنه قد صدرت في هذا الموضوع عدة فتاوى رسمية وأذيعت عنه أحاديث كثيرة كلها مجمعة على بطلان هذه النذور واعتبارها شركاً، ولكن الناس لا يزالون سادرين في غوايتهم ومصرين على ضلالتهم لا يقبلون فيها لومة لائم، وقديماً قيل: «حبك الشيء يعمي ويصم». وأما الذبح أو النحر فلا يشك مسلم كذلك في أنه عبادة مأمور بها، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، والنسك هنا معناه الذبح، وقال في سورة الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

وقد أمر الله من تمتع بالعمرة إلى الحج أن يذبح ما استيسر من الهدى، وأوجب على من ارتكب شيئاً من محظورات الإحرام فدية من صيام أو صدقة أو نسك، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فجعل الأمر بالنحر قرين الأمر بالصلاة، وقد ورد أنه ﷺ نحر في حجة الوداع مائة بدنة وأنه كان يضحي يوم عيد الأضحي بكبشين أملحين، ولم تزل الأضحية واجبة على كل قادر عليها من المسلمين، فدل ذلك كله على أن الذبح عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل، وفي الحديث: «أفضل الحج الشح والعج»، والمراد بالشح صب الدماء، وعلى هذا فمن ذبح ذبيحة وأهل بها لغير الله، أو قصد التقرب بذبحها لغيره، أو أطعمها الناس على اسم غيره كهذه الذبائح التي تذبح في مولد البدوي وغيره، فقد أتى عملاً فظيلاً من أعمال الشرك وضاهاً أهل الجاهلية الأولى في ذبحهم لألهتهم على النصب، وفي الحديث: «لعن الله من ذبح لغير الله».

نسأل الله أن يجنبنا مزالق الشرك كلها، ونستعيز به أن نشرك به شيئاً ونحن نعلم، ونستغفره لما لا نعلم، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الصوم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن الصيام من العبادات البدنية، وهو في لسان الشرع: إمساك عن المفطرات من الطعام والشراب والجماع بنية صحيحة، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، إيماناً واحتساباً لله عز وجل.

عبادة سلبية، وسر بين العبد وبين ربه ولا يطلع عليه غيره، فكان أبعد عن الرياء، ولما كان خلو المعدة من الطعام بالصوم سبباً في تغير رائحة الفم، جعل خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وشبهه الرسول ﷺ الصائم برجل في عصابة ومعه صرة مسك فكلهم يجد ريح ذلك المسك.

والصوم كالصلاة من العبادات التي لا يخلو عنها دين من الأديان، حتى تلك الأديان الوضعية التي لم تتصل بسبب إلى السماء، تعرض على أتباعها أنواعاً مختلفة من الصيام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وذلك لأن الصوم فيه من وسائل التربية وأساليب الرياضة النفسية ما لا يتوفر في غيره من العبادات، فهو يقوي الإرادة ويقهر النفس الأمارة بالسوء ويكفكف نوازع الشر، ويعود على الاحتمال بالصبر.

وهو كذلك انتصار للجانب الروحي الملائكي في الإنسان على الحيوان الرابض

والصوم من أحب العبادات إلى الله سبحانه، ومن أجل ذلك، اختاره ليكون مظهر الشكر على نعمته العظمى بإنزال القرآن العظيم هدىً للناس وبيانات من الهدى والفرقان، وجعل الشهر الذي يقع فيه الصوم خير شهور السنة كلها، وجعل فيه ليلة هي خير من ألف شهر، وسماها ليلة القدر.

ولا غرو، فالصائم وقد ترك طعامه وشرابه وهما مادة حياته، وهجر كل طيباته ومستلذاته، لا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، صار حقيقاً بالوعد الذي وعد الله به الصائمين وهو أن يتولى جزاءهم بنفسه كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي».

ومعنى أن الصوم وحده من بين سائر الأعمال لله، أنها جميعاً مظنة الرياء، ولا تخلو من أن يكون للنفس فيها حظ، لأنها أفعال ظاهرة، وأما الصوم فمن قبيل التروك، إذ هو كف النفس عن مبهتهياتها فهو

بقلم



محمد خليل هراس

رحمه الله

هزالاً في البدن وفساداً في الخيال وسقماً في التفكير وضعفاً عن القيام بواجبات العبادة من الصلاة والجهاد ونحوها.

وقد يزيد في التلبس عليهم فيوهمهم أنهم لا يطيقون شكر هذه الأطعمة الدسمة والمأكّل اللذيذة، فيجب أن يقتصروا على ما يستطيعون أن يقوموا بشكره، وقد روى الحسن رحمه الله أن رجلاً من هؤلاء الصوفية قال: إني لا أكل الخبيص لأنني لا أطيق شكره، فقال الحسن: ويح هذا الأحمق، وهل يطيق شكر نعمة الماء البارد؟

ومن ذلك أيضاً ما اعتاده كثير من المسلمين من الإسراف البالغ في تناول الأطعمة المختلفة عند الإفطار بكميات هائلة لا تلبث أن تثقل على المعدة فتكسلهم عن الصلاة وتجلب لهم النوم وترهق أجسامهم أشد الإرهاق.

وهذا نتيجة للجهل بحقيقة الصوم والغرض المقصود منه، فإنه لم يشرع لكي يجوع الناس طوال النهار ثم يقوموا بتعويض ما فاتهم في الليل، بل يجب أن لا يزيد الإنسان عما اعتاده في غير رمضان، إن لم يستطع أن يقلل عنه. ولعل هذا الإسراف في الأكل والشرب في رمضان هو الذي جعل المسلمين لا يستفيدون من صوم شهرهم الفائدة المرجوة لصالح أرواحهم وجسومهم.

والله من وراء القصد.

فيه، فالصائم يسمو على كل شهوة ويعافها من أجل أن الله أمره بذلك، وإذا عرف الإنسان كيف يقهر نفسه ويحجزها عن محبوباتها من أجل غاية أسمى، فإنه يسهل عليه بعد ذلك أن يقودها إلى كل ما فيه نجاتها وسعادتها، وأن يردّها عن موارد الهلكة والشقاء فيسعد بها وتسعد به ويعيش حياته حراً لا تستعبده شهوة ولا يستفزه طمع ولا تضره فتنة.

ولعل هذا هو معنى الحديث الصحيح: «الصيام جنة»؛ إذ المراد أنه وقاية لها من كل ما يندسها ويوبقها ويهبط بها إلى حضيض الشهوات المؤثمة.

تجاوزات لا تصلح مع الصيام

ولنكتف بهذا القدر في بيان فضيلة الصوم، فإن الذي يعنينا هنا هو التنبيه على ما قد يداخل هذه العبادة الشريفة من أنواع الفساد والبدع، فإن الشيطان لا يريد أن يدع عبادة من العبادات حتى يدخل عليها من وساوسه وتلبيساته ما يفسد على الناس معناها حتى لا يبقى حظه منها إلا كسراب بقيعة، فمن ذلك ما سوله لبعض المتصوفة من المبالغة في الجوع والحرمان، حتى تراهم يصومون أياماً وليالي متصلة، زاعماً لهم أنهم إذا جاعوا ماتت فيهم الشهوات فتقوى عند ذلك أرواحهم وتصفو نفوسهم وتتخلص من قيود الجسد، وليس هذا طبعاً صيام أهل الإسلام، ولكنه صيام عباد الأوثان من فقراء الهنود وآتباع بوذا وجماعات (النيرفانا).

وقد يمك بعضهم عن أنواع معينة من الطعام كاللحوم ونحوها مكتفياً ببعض النباتات أو الخبز القفار، مما يسبب لهم

الحج ومعاني العبودية

إعداد / د. محمد خليل هراس



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

من العبادات البدنية: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو آخر فريضة في الإسلام، ويزيد على الصلاة والصوم أن فيه عنصر المال إلى جانب ما يشتمل عليه من الأعمال والأقوال.

والحج رحلة إلى الله تعالى يقوم بها المسلم لينال بها إذا هو أداها على وجهها طهارة لنفسه من أوزارها حتى يرجع كيوم ولدته أمه، ويفوز برضوان الله وجنته، فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، كما جاء في الحديث:

وتجارة يخشى كسادها، متحملاً مشقة السفر وألم الفراق ووحشة الاغتراب، كل ذلك في سبيل الاستجابة لنداء ربه حيث دعاه لزيارة بيته الذي اختصه لنفسه وجعله أول بيت وضع لعبادته في أرضه.

وما هو إلا أن يبلغ الميقات حتى يتأهب للقدوم على مولاه، فيتجرد من ثياب زينته ويتلف بثياب العبودية المحضة إزاراً ورداءً، بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب، ثم يهل بعد الصلاة بنسكه من حج أو عمرة، قارئاً ذلك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، هذه الكلمات التي تفيض بمعاني التوحيد والإخلاص، وتعلن إقبال العبد على ربه وإسراعه في طاعته، وتخصه وحده سبحانه بأن له الحمد كله والنعمة والملك وتنفي عنه الشريك في ذلك كله.

ثم هو بعد ذلك يلتزم في تصرفاته كلها ما التزمه العبد بحضرة سيده، فلا يصدر منه عدوان أصلاً، بل كل شأنه سلم وأمان فلا يقتل حيواناً حتى ولو كان من هوام الجسم ولا ينفر صيداً ولا ينتف شعراً ولا

وكثير من الناس لا سيما أدعياء الثقافة والعلوم العصرية لأنهم لا يفقهون الحكمة من هذه الفريضة، تراهم يثيرون الشكوك حول كثير من الأعمال التي جعلها الله مناسك للحج، كاستلام الحجر الأسود وتقبيله، ورمي الجمار ونحو ذلك ويتسائلون عن الحكمة فيها، وإذا حاول أحد إقناعهم بما تعكسه هذه الأعمال المختلفة مع ما يلابسها من الأدعية الضارعة والآنكار الخاشعة على النفس من انطباعات وأحاسيس تزيد معنى الإسلام فيها صقلاً وجللاً وتشعرها بمعاني العبودية الكاملة الخائفة الراجية، لم يجد الكلام مساعاً لدى هذه القلوب الشاردة الغافلة، ولكننا مع ذلك سنحاول جهد الطاقة أن نقرب إليهم هذه المعاني وإن كنا لا نرى ذلك واجباً، فإن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به علم الحكمة في ذلك أم لم يعلمها، فإن الاعتراض على الأمر إبليسية قديمة أعانها الله منها، فالحاج يخرج من بلده بعد أن يكون قد رد الحقوق والودائع إلى أهلها، وتحلل من كل مظلمة ظلمها، تاركاً وطناً يحبه ومسكناً يرضاه وأهلاً وأولاداً يخاف عليهم

يغطي رأساً، متجنباً الرفث والفسوق والمرء والجدال إلى غير ذلك مما يخل بإحرامه، حتى يقدم مكة بلد الله الحرام فيبادر إلى أداء مناسك عمرته التي هي الطواف بالكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة ذاكراً في طوافه وسعيه أنه في جوار ربه الكريم الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، فيدعوه في ذلة وضراعة أن يحط عنه أوزاره وخطاياها. ومن عجب أن كل ملوك الدنيا ورؤسائها يتخذون لهم قصوراً يؤمها الناس من رعيته وغيرهم في المناسبات المختلفة إعراباً عن ولائهم لهم، حتى ولو لم يكونوا هم موجودين فيها. فماذا ينكر إذاً من وجود بيت الله في أرضه يؤمه عباده الذين هم عباده إظهاراً لذل العبودية، وقياماً بواجب الطاعة، وتخففاً من أثقال الذنوب وطلباً للفضل والرحمة من الكريم المنان، وهكذا كل أعمال الحج من السعي والوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار والذبح، لا تخلو كلها من معاني التعبد المحض والتزلف للسيد المالك جل شأنه، كما تتزلف الرعايا إلى ملوكهم ولله المثل الأعلى.

أما تقبيل الحجر الأسود فإنه لا يخطر ببال مسلم أبداً وهو يقبله أنه ينفع أو يضر، كما روي عن الفاروق رضي الله عنه أنه قال بعد أن قبله: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت

رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك». فنحن نقبله كما قال عمر اقتداء برسولنا ﷺ وهو عليه السلام لم يفعل ذلك من عند نفسه، بل بوحى من ربه، فماذا إذاً في تقبيل حجر تعبدنا الله بتقبيله فنحن نقبله عبادة لله لا عبادة للحجر.

فما أحرى الناس أن يتدبروا هذه المعاني السامية حين قيامهم بمناسك حجهم وعمرتهم، حتى يشعروا فيها بطعم العبودية ولا يرين على صدورهم شيء من الشك في حكمتها.

وما أحرهم كذلك أن يذكر ما في الحج وراء هذه الفوائد الروحية الفردية من فوائد اجتماعية عظيمة تتمثل في ذلك اللقاء والتعارف بين المسلمين الوافدين من شتى أقطار الأرض تظلهم جميعاً راية التوحيد، وتؤلف بينهم أخوة الإسلام حيث يتبادلون المنافع ويتشاورون فيما يهمهم من عظام الأمور، مصداق قول الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

تهنئة

جماعة أنصار السنة المحمدية بالمركز العام وأسرة تحرير مجلة التوحيد تهنيئاً نفسها أولاً وتهنيئاً ابناً باراً وواحداً من براعم التوحيد ومن أبناء الجماعة في فرع الإسكندرية «مسجد الإمام البخاري بالسيوف» وذلك لفوزه في مسابقة الملك عبد العزيز الدولية لحفظ القرآن الكريم وتلاوته وتفسيره.

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تهنيئاً ابنها البار كما تزف التهنئة إلى القائمين على فرع الإسكندرية رئيساً وأعضاء.

وندعوا الله العليّ الفدير أن يبارك في جهودهم

رئيس التحرير

خصائص شهر رمضان

كتبه العلامة:

محمد خليل هراس رحمه الله

نشرت في مجلة الهدى النبوي

عدد رمضان عام (١٣٨٤هـ)

رمضان أحد الشهور العربية التي كان يعرفها العرب في جاهليتهم، وقد روي في سبب تسميته بهذا الاسم أنه جاء في وقت قبض قد التهبته منه حصباء الأرض، فسمي رمضان من الرمضاء، وهي شدة الحر، وقد جاء في الحديث: (صلاة الأوابين حين ترمض الفصال). صحيح: مسلم [٧٤٨]؛ وابن حبان [٢٥٣٩]؛ وابن خزيمة [١٢٢٧].

وقد امتاز رمضان على سائر الشهور بعدة خصائص جعلت له في نفوس المسلمين أعظم مكانة، ولهذا يفرحون بمقدمه، ويستقبلونه كل عام بمزيد من البشر والغبطة والحفاوة والتقدير. وقد رأيت بمناسبة هلال هذا الشهر الكريم أن أعرف إخواني أهل السنة والتوحيد من قراء مجلة (الهدى النبوي) بما لهذا الشهر من الخصائص والمزايا، فإنهم أولى الناس أن يعرفوا لهذا الشهر قدره، وأن يراعوا حرمة، وأن يتخذوا منه موسماً لتجارة رابحة مع الله - عز وجل - في كل عام.

أفادت هذه الآيات أن شهر رمضان هو الشهر الذي وضعت فيه اللبنة الأولى في بناء الدستور الإلهي الذي أراد الله به أن يرحم أهل الأرض، وأن يخرجهم مما كانوا فيه من ظلام الجهل والظلم إلى نور الحق والعدل، كما ابتداء فيه تخطيط الملامح الأولى للأمة الإسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس؛ فرمضان هو شهر الابتداء والتأسيس كما كان ذو الحجة شهر التمام والكمال. ولقد جعل الله هذه الليلة خيراً من ألف شهر، وسمّاها ليلة القدر؛ وذلك لأنها الليلة التي ابتداء فيها اتصال السماء بالأرض بعد زمان طويل من انقطاع الوحي؛ فكانت أعم الليالي بركة وأعظمها فائدة، ولهذا سجلت في القرآن، وخلدت على مر

١. إن أول خصائص هذا الشهر أن الله قد اختاره لإنزال القرآن فيه كما قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» [البقرة: ١٨٥].

فقد نزلت الآيات الأولى من القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مجاور بغار حراء يتعبد لربه، حيث جاءه الملك بها في نمط من ديباج فعرضها عليه وأمره بقراءتها؛ فلما اعتذر بأنه ليس بقارئ تلاها عليه الملك. وهي الآيات الأولى من سورة العلق: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» [العلق: ١-٥].

السنين ففي كل عام يحتفل بها أهل السماء وأهل الأرض من المؤمنين.

٢- ومن أجل أن رمضان كان ظرفاً لهذه النعمة الكبرى بإنزال القرآن، وكان ذلك يقتضي من العباد أن يقوموا لله بواجب الشكر والعرفان؛ فقد اختار الله رمضان ليكون موسماً لعبادة من أحب العبادات إليه، وهي عبادة الصيام التي أضافها إلى نفسه، وجعل جزاءها موكلاتاً إليه، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي) صحيح: البخاري [٥٩٢٧]؛ ومسلم [١١٥١].

فالصوم هو التعبير العملي عن فريضة الشكر لله على أعظم نعمة أنعم بها على عباده، وهي إنزال القرآن كما أنه أنسب العبادات كلها لتلك النعمة؛

فإن الغرض من إنزال القرآن هو أن يكشف للإنسان عن جوهره، ويبرز له خصائصه الإنسانية التي أهملها ونسيها، ويحدد مركزه في هذا الوجود، ويعرفه بالغاية من وجوده على الأرض، ويرسم له الطريق الذي يوصله إلى تلك الغاية، ويرتفع به عن غمار البهيمية السافلة، وينأى به عن سيطرة الغرائز والشهوات الدنية، ويؤهله للقيام

بواجب الخلافة عن الله في أرضه.

ولا شك أن هذه الأهداف هي بعينها الأهداف التي تثمرها عبادة الصيام، فإنه عبادة روحية إنسانية تهدف إلى إصلاح الإنسان وتقويمه، وإبراز كيانه الإنساني الذي ميزه الله به عن سائر الحيوانات التي تعيش معه على الأرض، وهو أنه كائن ممتاز له إرادة حرة وعقل مفكر؛ فلا ينبغي أن ينساق وراء شهواته ورغباته، بل يختار أعماله حسبما توجبه الشريعة العادلة ويقتضيه العقل والحكمة.

فإذا كان القرآن هو كتاب الإنسان الذي يصحح له وجوده الإنساني وينفي عنه كل ما ران على هذا الوجود من عوج وانحراف بسبب غلبة الشهوات وسوء الطبع وجمود الفكر وسيطرة الوهم وحجب التقليد، فإن الصوم كذلك هو عبادة الإنسان الذي يكشف له عن وجوده الأسمى وهو روحه التي صار بها إنساناً، ويخرجه من مذلة الاستخذاء أمام الشهوات إلى عزة الانتصار عليها، ومن ضعف النفس حيال حاجات الجسد ومطالبه إلى قوة الاستعلاء عليها، ولهذا ربط الإسلام بين رمضان والقرآن، فهو ليس شهر نزوله فحسب، بل هو أيضاً شهر تلاوته ومدارسه؛ فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يزل عليه جبريل -عليه السلام- يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام في شهر رمضان مرة؛ فلما كانت السنة التي توفي فيها عارضه به مرتين). صحيح البخاري [٦]؛ ومسلم [٣٦٢٣]؛ ومسلم [٢٣٠٨]؛ [٢٤٥٠].

٣ - ومن خصائص هذا الشهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم سن لأُمَّته قيام ليلاته وإحياءها بالصلاة وتلاوة القرآن، ورغب في ذلك وجعله كفارة لما تقدم من الذنوب، وقد روى البخاري في صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه). صحيح البخاري [٣٨]؛ ومسلم [٧٥٩].

وقيام رمضان بجماعة في المسجد سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يواظب عليها خشية أن تفرض على الناس، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في المسجد ذات ليلة، فصلى بصلاته

**امتاز رمضان على سائر الشهور
بعدة خصائص جعلت له في
نفوس المسلمين أعظم مكانة،
ولهذا يفرحون بمقدمه،
ويستقبلونه كل عام بمزيد
من البشر والغبطة والحفاوة
والتقدير.**

رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلى أربعاً فلا تسال عن حسنهن وطولهن، ثم صلى أربعاً فلا تسال عن حسنهن ولا طولهن، ثم يصلى ثلاثاً). صحيح البخاري [١١٤٧]؛ ومسلم [٧٣٨].

وأما ما روى عنها وعن ابن عباس من أنه كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة، يصلى عشراً ثم يوتر بثلاث، فقد أجاب عنها بعض المحدثين بأن الحديث الأول إخبار عن صلاته الغالبة المعتادة، والثاني إخبار عن زيادة وقعت في بعض الأوقات أو أنها ضمت فيه ما كان يفتتح به صلاته من الليل من ركعتين خفيفتين قبل الإحدى عشرة، ولم يرو أحد عنه صلى الله عليه وسلم أنه زاد على ذلك في قيام الليل.

وعلى هذا فما يعمله الناس اليوم من صلاتهم التراويح عشرين ركعة أو أكثر هو مجاوزة لما حده الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن خير الهدى هديه.

ويحلو لبعض الناس أن يكذب على عمر رضي الله عنه، فينسب إليه أنه هو الذي أمر بصلاة التراويح عشرين ركعة وحاشا لعمر الفاروق أن يخالف هدي نبيه بل قد روى مالك في الموطأ

عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنه قال: أمر عمر بن الخطاب أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوموا للناس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا قرب بزوغ الفجر.

وأما ما رواه مالك عن يزيد بن رومان من أن الناس كانوا يقومون رمضان في زمان عمر بثلاث وعشرين ركعة. فهذا إن صح غلط من الناس لا يسال عنه عمر، ويكون مخالفاً لأمره السابق لهم بالاعتصار على إحدى عشر ركعة.

٤ - ومن خصائص رمضان أيضاً أنه شهر

أناس، ثم صلى الليلة القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح قال: (قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم؛ إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان). صحيح البخاري [١١٢٩]؛ ومسلم [٧٦١].

فدل هذا الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم لم يمنعهم من الصلاة خلفه إلا لخشيته أن تفرض عليهم هذه الصلاة جماعة في المسجد فيشيق ذلك على كثير منهم، وبقي الأمر على ذلك مدة حياته صلى الله عليه وسلم وزمان خلافة أبي بكر رضي الله عنه وصدرًا من خلافة عمر

يقوم الناس رمضان في بيوتهم أو في المساجد فرادى متفرقين.

ثم إن عمر خرج في رمضان إلى المسجد ذات ليلة فوجد الناس أوزعاً متفرقين، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط؛ فقال عمر: والله إني لأراني لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل؛ فجمعهم على أبي بن كعب، فلما خرج ليلة أخرى إلى المسجد ووجد الناس يصلون بصلاة

قارئهم، قال: نعمت البدعة هذه؛ والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون - يعني آخر الليل - وكان الناس يقومون أوله.

وهذا التعبير (نعمت البدعة هذه) من عمر يقصد به بدعة لغوية؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم صلاها بالناس جماعة، ولكنه خشي أن تفرض على الناس، كما في حديث عائشة السابق، فلم يداوم عليها جماعة.

ولا تجوز الزيادة في قيام رمضان على ما واظب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم دائماً في قيامه الليل، وهو ثمان ركعات، ثم يوتر بثلاث؛ فقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما كان يزيد

الصوم هو التعبير العملي عن

فريضة الشكر لله على أعظم

نعمة أنعم بها على عباده،

وهي إنزال القرآن الكريم

كلام رب العالمين.

ولا غرو فشهر رمضان هو شهر الانتصار المادي والمعنوي، فهو انتصار على الأعداء من الكفرة والمجرمين، وهو انتصار للروح على الجسد وللعقل على الهوى، ولإرادة الحرة على شهوات النفس ونزعات الشياطين.

٥ - وكذلك اختص هذا الشهر بأن فيه ليلة هي خير من ألف شهر وهي ليلة القدر التي تنزل فيها الملائكة والروح بإذن ربهم من كل أمر، سلام هي حتى مطلع الفجر.

وهذه الليلة إنما حازت هذا الشرف لنزول القرآن فيها، فهي ظرف لأعظم حادث هز كيان الإنسانية كلها فايقظها من سباتها وبعثها من جمودها وفتح أعينها على نور الحق وهداها صراطها المستقيم؛ فحق لها أن تفخر على الليالي جميعاً بما اشتملت عليه من خير وبركة، وأن تكون هي الليلة التي يشمر المسلمون عن ساعد الجد في التماسها رغبة فيما أعده الله لمن صادفها من الأجر العظيم والغفران الكبير. ومن أجلها كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان إلى أن فارق الدنيا وأمرنا بتحريها والتماسها في

الوتر من العشر الأواخر، وقال عنها: (من يقم ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) صحيح البخاري [٣٥]؛ ومسلم [٧٦٠]، وقال أيضاً: (من حرم خيرها فقد حرم). سنن ابن ماجه [١٦٤٤]؛ ومصنف عبد الرزاق [٧٣٨٣]؛ وصححه الألباني.

وهكذا يستقبل المؤمنون الصادقون رمضان وهم يحملون له في قلوبهم كل هذه الذكريات العظيمة، راجين من الله أن يخرجوا بمغفرة ورحمة، وأن يوفقهم الله لحسن صيامه وقيامه حتى يكون حجة لهم يوم القيامة، والله ولي التوفيق، وهم نعم المولى ونعم النصير.

النصر، فأكثر المعارك الفاصلة في حياة الدعوة الإسلامية إنما وقعت في هذا الشهر، فكانت غزوة بدر التي سماها الله فرقاناً، وجعلها آية على تأييده لنبيه وللمؤمنين في السابع عشر من شهر رمضان، وقد نزلت فيها الملائكة من السماء تثبت قلوب المؤمنين وتبشرهم بالنصر، وقيل: أنها قاتلت معهم بناء على أن قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿فَأَشْرُوا قَوْمَ الْأَعْتَابِ وَأَشْرُوا مِنْهُمْ كَلَّ﴾ [الأنفال: ١٢] خطاب للملائكة وللمؤمنين.

وأيما ما كان، فقد كانت غزوة بدر أول غزوة وأعظم غزوة خضد -أي: كسر- فيها شوك الشرك وقلمت أظافره، وعلت فيها كلمة الإسلام وتجلت أنواره، ولهذا غفر الله لكل من شهدها من الصحابة وقال لهم في الحديث الصحيح: (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). صحيح البخاري [٣٠٠٧]؛ مسلم [٢٤٩٤].

ولما أراد عمر أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له النبي: إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

وكان فتح مكة في اليوم الرابع والعشرين من رمضان، وهو ذلك اليوم الأغر المحجل الذي استخذى فيه الشرك وذل، وألقى السلاح وأسلس القياد بعد طول تمرد وعناد، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دخولا لم يدخله أحد قبله، وقد طأطأ رأسه تواضعا لربه حتى كادت نفته تمس رحله، ودخل المسجد الحرام الذي بناه أبوه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فحطم ما كان يعلوه ويحيط به من الأوثان والأصنام وأخذ يطعن بها بقضيب في يده فتخر صريعة على وجهها يتلو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْفَحْشَى وَزَعَمَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوًّا﴾ [الإسراء: ٨١]

يستقبل المؤمنون الصادقون
رمضان وهم يحملون له في قلوبهم
كل هذه الذكريات العظيمة،
راجين من الله أن يخرجوا بمغفرة
ورحمة، وأن يوفقهم الله لحسن
صيامه وقيامه حتى يكون حجة
لهم يوم القيامة.

كلمات رقراقة في الحج والعمرة

منتقاة من أقوال:

الشيخ/ محمد حامد الفقي

الشيخ/ أبو الوفاء درويش

الشيخ/ محمد خليل هراس



الحج

يقول الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله في مجلة الهدي النبوي (١):

الحج: هو القصد المستقيم على علم وهدى بنية صادقة وقلب مخلص إلى أداء المناسك عند البيت المحرم، وتعظيم شعائر الله وحرماته في أشهر معلومة هي: شوال، وذو القعدة، وأيام من ذي الحجة من الطواف بالبيت. والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة ورمي الجمار في منى في أيام معدودات.

والعمرة مأخوذة من التعمير، وهي تعمير البيت بتعظيم شعائر الله، وإقامة المناسك مثل الحج إنها لا وقت لها معين، بل تصح في أي يوم من السنة وهي في رمضان أفضل، وليس فيها وقوف بعرفة ولا رمي جمار بمنى.

هذا على حين نجد الشيخ أبا الوفاء درويش يقول:

«هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى»، من ذا الذي ينكر أن الحج من خير ما يتزكى به الإنسان، ويتطهر من أرجاسه، ويتخلى من أدناسه؟

من أقرب إلى الله منك وقد تطهرت من ذنوبك، وتركيت من آثامك، وطفت ببيت ربك؛ ترجو رحمته، ووقفت بالمشاعر العظام تبتهل إليه، وتذكره فيطمئن قلبك بذكره، وتدعوه مخلصاً له الدين حنيفاً، وقد هجرت إليه أهلك وولدك ووطنك، وأنفقت مالك في طاعته، وأنضيت بدنك وتحملت وعناء السفر في سبيله. عبادة

فتحي أمين عثمان

أعداد

تجمع بين إنفاق المال على حبه، وإنشاء البدن مع فرط الحرص على راحته، وفراق الأهل والوطن لا جرم أنها من خير القرب، ومن أحب وسائل الزلفى إلى الله تعالى.

قل لهؤلاء الأغنياء الذين ينفقون أموالهم في الموالد، ويقيمون المضارب والسرادات، ويشدون الرحل لغير بيوت الله التي أذن أن تشد إليها الرحال: أنضيتم أيدانكم، وأنعيتم رواحلكم، وأنفقتم أموالكم في غير طائل وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعا.

ليس شد الرحال لغير المساجد الثلاثة عبادة يثيبكم الله عليها ولا قرية تزلفكم عنده، ولكنه إثم ومعصية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول: (لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى).

ومن يعص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد عصى الله، ومن عصى الله ورسوله فقد ضل ضالاً بعيداً.

فاتخذ أيها المؤمن الموفق حج البيت وسيلة إلى مرضاة الله، واتخذ العمرة زلفى إليه، يجب دعوتك ويرض عنك، ودع الطواغيت فإنها لا تزيدك من الله إلا بعداً.

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو

المؤمن إذا حزبه الأمور، أو عصفت
به الشرور، أو اهتوشته شياطين
الفتنة، فر إلى بيت الله حيث يجد
في هذا الحمى الأمين راحة لنفسه،
وعزاء لقلبه، وأنسا بربه، وقوة
تعينه على عدوه.

مع ذكر الله تعالى، فيقول الحاج، اللهم إني
أردت الحج ونويته لوجهك الكريم فيسره لي،
وتقبله مني، ويسبق ذلك تجرد من الثياب
المخيط، وغسل يطهر به ظاهر الجسد،
وتوبة تطهر بها الروح، وارتداء إزار ورداء
محيطين غير مخيطين.

وهذا التجرد رمز للتخلي عن الدنيا،
وشهواتها ولذاتها، وفتونها، والتأهب للآخرة،
والتخفف للسير في طريقها كما أنه يذكره
بالموت والغسل والكفن، فيدفع الإنسان إلى
الزهد في العاجلة، والعمل للآخرة التي هي
الحياة الحق، لا نهاية لها ولا انقضاء.

والتلبية هي الأنشودة القدسية التي تسمو
بالنفس إلى عالم القدس، وتخرج بها إلى
الملا الأعلى، حين يهتف الإنسان من كل قلبه
(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك،
إن الحمد والتعمة لك والملك، لا شريك لك)
هذه التلبية تدل على أن العبد لبي دعوة
مولاه حين دعاه لزيارة بيته الكريم، ومنحه
زاد السفر، والقدرة عليه، كما تدل على أنه
أخلص له في سره وعلمه، ولم يجعل له في
طوايا قلبه شريكا من مال ولا ولد، ولا أهل ولا
وطن، ولا من سادة ولا كبراء، ولا من شياطين
الأرض ولا ملائكة السماء، كما تقيد أنه
يعتقد أن النعمة التي أسبغت عليه ليست إلا
منه وحده لا شريك له، وأنه المحمود عليها
دون سواه، وعلى أن العبد من أجل ذلك يترك

عبادة تجمع عبادات (٢)، وقربة تضم قربات،
وهو سلسلة محكمة الحلقات، تربط شريعة
خاتم النبيين -صلى الله عليه وسلم- بشريعة
أبيه إبراهيم -عليه السلام- وثوحة تمثل في
أذهان الآخرين ذكريات الأولين.

لما رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل
-عليهما السلام-، أمره الله تعالى أن يؤذن في
الناس بالحج ليأتوه رجالا، وعلى كل ضامر
يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم،
ويذكروا اسم الله في أيام معلومات، على ما
رزقهم من بهيمة الأنعام. فصدع إبراهيم
-عليه السلام- بما أمر، واستجاب الناس
لدعوته؛ ثم انتقل إبراهيم -عليه السلام-
إلى الرفيق الأعلى ولحق به إسماعيل -

عليه السلام- وطال الأمد، وبعد عهد الناس
بالعلم والدين الصحيح، فأحدثوا في الدين
أمورا شوهت جماله، وابتدعوا بدعا ذهبت
بروعته، وفشت في الأمة العربية جاهلية
غفول، وغفلة جاهلة ألقت على وجه الحق
حجابا كثيفا حجب إشراقه، وغطى ضياءه.

وجاء الإسلام لينقذ البشرية من ضلالها،
وينتشل الأمة العربية من أحوالها، فأقر
فريضة الحج، بعد أن نفي عنها بدع الجاهلية
ومحدثاتها، وأوجبها نقية خالية من الشوائب،
خالصة من اللوات.

وأمر الله محمدا صلى الله عليه وسلم بما أمر
به إبراهيم -عليه السلام- من قبل، وأوجب
على أمته حج البيت من استطاع إليه سبيلا.
الحج فرار إلى الله واعتصام به، وانصراف إلى
حين عن حظوظ الدنيا وفتن الشيطان.

ألم تر إلى الرجل إذا طارده الأعداء، وضاق
في وجهه السبل. كيف يفر إلى مليكه، يطوف
بقصره، ليصرف عنه سوء، ويجيره من أذى
العدو؟

كذلك المؤمن إذا حزبه الأمور، أو عصفت به
الشرور، أو اهتوشته شياطين الفتنة، فر إلى
بيت الله حيث يجد في هذا الحمى الأمين
راحة لنفسه، وعزاء لقلبه، وأنسا بربه، وقوة
تعينه على عدوه.

تبدأ أعمال الحج بالأحرام، وهو نية الحج

الحجيج - وهم يطوفون بالبيت

العتيق - يمثلون أمة حزبيها أمر من

الأمور، ففزعته إلى ملكها تطوف

بقصره، وتسأله أن يدفع عنها

المكروه،

الأولون والآخرين في صعيد واحد، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، فإذا ذكر الحجاج هذا اليوم وأهواله، ومثلوا لبصائرهم كرباته وشدائده حرصوا على أن يقدموا لأنفسهم من الخير والصالحات ما يكون سببا لنجاتهم من تلك الأهوال، وإنقاذهم من هذه الكربات.

وعرفات مؤتمر إسلامي عام يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فيتباحثون ويتشاورون فيما يرقى أمهم دينيا وخلقيا واقتصاديا وسياسيا. حتى إذا عاد كل فريق إلى بلده، حاول أن يدخل فيه الإصلاح ما قبسه من غيره، فيرقى العالم الإسلامي في جميع مناحي الحياة.

ولكن وأسفاه.. إن هذه الحكمة العالية تكاد تكون معطلة، فكثير من الأقطار الإسلامية لا تعرف العربية، وسكان البلاد التي تنطق العربية لا يحسنون لغات هذه الأقاليم، فلا يتسنى التفاهم بين الفريقين.

فلو أن تلك الأقطار حرصت على أن تتعلم اللسان العربي الذي هو لسان القرآن والسنة، اللسان الذي نزلت به الشريعة على خاتم النبيين، لتسنى لهم التفاهم والتخاطب وتبادل الآراء. ولجنى المسلمون من ذلك أطيب الثمرات وأشهاها.

ورمي الجمار: رمز لدحر الشيطان وحزبه، والإعراض عن إغرائه ووسوسته، إذ ليس من أصالة الرأي أن تتخذ الشيطان عدوا ترجمه

وراءه ماله وولده ووطنه وزراعته، أو تجارته أو صناعته، ويجيء ملييا دعوة ربه، ملتصقا ما عنده من الخير والرضوان.

والحجيج - وهم يطوفون بالبيت العتيق - يمثلون أمة حزبيها أمر من الأمور، ففزعته إلى ملكها تطوف بقصره، وتسأله أن يدفع عنها المكروه، من حلول عدو، أو نزول مجاعة، أو طغيان فيضان، أو يحقق لها المنى، وييسر المطالب، إذ ليس لها من تلوذ ببابه أو تعوذ برحابه سواه.

واني أتمثلك أيها الصديق العزيز، وأنت ترد في حماسك وغيرتك، على هؤلاء الذين يعترضون على المسلمين الذين يقبلون الحجر الأسود، أو يستلمونه ويقولون: هذه وثنية؛ إذ كنت تعزو مقالاتهم إلى القباء وضيق الفكر، وتقول: إن الحجر الأسود رمز، وضع في بيت الله العتيق يمثل يمين الله في الأرض يصفح بها عباده.

إن الناس لا يتسنى لهم أن يصفحوا ربه جل ذكره وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، والأنبياء - عليهم السلام- الذين إذا بايعهم العبد فكانما بايع الله لم يجعل لهم الخلد في الأرض، فوضع الحجر الأسود ليكون رمزيا إلى الأبد خالدا للناس.

من شاء أن يعاهد الله منهم على الإيمان والتقوى فليضع يده عليه إن استطاع، وليقبله إن تسنى له ذلك وليشر إليه بيده أو بعصاه إن عجز عن لمسه وتقبيله. فأين الوثنية من هذا المعنى القدسي السامي الذي لا يدركه إلا أولو الألباب.

والصفا والمروة من شعائر الله، والسعي بينهما يذكر بضراعة أم إسماعيل إلى الله تعالى حين أعوزها الماء، ودعت الله دعوة مضطرة، ففجر لها الماء من صميم الصخر. فحين يسعى الحجيج بين الصفا والمروة، يستعيدون هذه الذكريات، ويظهرون ضراعتهم وذللهم وحاجتهم إلى الله فيتولاهم بلطفه ورحمته، ويبد لهم من لدنه رحمة.

والوقوف بعرفات يمثل للأذهان الموقف العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويجتمع

بعض أدعياء الثقافة والعلوم

العصرية لا يفقهون الحكمة من

هذه الفريضة، تراهم يثيرون

الشكوك حول كثير من الأعمال

التي جعلها الله مناسك للحج .

هذه الكلمات التي تفيض بمعاني التوحيد والإخلاص، وتعلن إقبال العبد على ربه وإسراعه في طاعته، وتخصه وحده سبحانه بأن له الحمد كله والنعمة والملك وتنفي عنه الشريك في ذلك كله.

ثم بعد ذلك يلتزم في تصرفاته كلها ما التزمه العبد بحضرة سيده، فلا يصدر منه عدوان أصلاً، بل كل شأنه سلم وأمان فلا يقتل حيواناً حتى ولو كان من هوام الجسم ولا ينفر صيداً ولا ينتف شعراً ولا يغطي رأساً، متجنباً الرفث والفسوق والمراء والجidal إلى غير ذلك مما يُخل بإحرامه حتى يقدم مكة بلد الله الحرام فيبادر إلى أداء مناسك عمرته.

وأخيراً: فإن ما ذكره بعض ما استشعر هؤلاء في مناسك الحج والعمرة، ولا فإن المعاني السامية التي تصل إلى القلوب والأرواح أثناء قضاء هذه المناسك هي معين لا ينفد وكنز لا ينضب يمن الله به على عباده المؤمنين على قدر شعورهم بهذا النسك العظيم، فالحلم ارزقنا القرب منك، والتجرد لك، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

الهوامش

- ١- مجلة الهدي النبوي - عدد ١٢ سنة ١٣٧٤ هـ مقال (هدي الرسول الأكرم في الحج والعمرة إلى بيت الله المعظم).
- ٢- كتاب الإسلام والإيمان والإحسان، تأليف أبي الوفاء درويش.

وتدحره، ثم تعود فتتخذ صديقاً، تستجيب لوسوسته وأغرائه.

ولو أن الحاج استحضر هذا المعنى وهو يرمي الجمار، ثم احتفظ بعد ذلك بقوة إرادته وصدق إيمانه، ما كان للشيطان عليه بعد ذلك من سلطان.

ويضيف الشيخ خليل هراس أن بعض أدعياء الثقافة والعلوم العصرية لا يفقهون الحكمة من هذه الفريضة، تراهم يثيرون الشكوك حول كثير من الأعمال التي جعلها الله مناسك للحج، كاستلام الحجر الأسود وتقبيله، ورمي الجمار ونحو ذلك ويتساءلون عن الحكمة فيها، وإذا حاول أحد إقناعهم بما تعكسه هذه الأعمال المختلفة مع ما يلابسها من الأدعية الضارعة والأذكار الخاشعة على النفس من انطباعات وأحاسيس تزيد معنى الإسلام فيها صقلاً وجلاء وتشعرها بمعاني العبودية الكاملة الخائفة الراجية، لم يجد الكلام مساعداً لدى هذه القلوب الشاردة الغافلة، ولكننا مع ذلك سنحاول جهد الطاقة أن نقرب إليهم هذه المعاني، وإن كنا لا نرى ذلك واجباً، فإن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به، علم الحكمة من ذلك أم لم يعلمها، فإن الاعتراض على الأمر إبليسية قديمة، أعادنا الله منها، فالجواب يخرج من بلده بعد أن يكون قد رد الحقوق والودائع إلى أهلها، وتحلل من كل مظلمة ظلمها، تاركاً وطنه يحبه ومسكنه يرضاه وأهلاً وأولاداً يخاف عليهم وتجارة يخشى كسادها، متحملاً مشقة السفر وأمل الفراق ووحشة الاغتراب، كل ذلك في سبيل الاستجابة لنداء ربه حيث دعاه لزيارة بيته الذي اختصه لنفسه وجعله أول بيت وضع لعبادته في أرضه.

وما هو إلا أن يبلغ الميقات حتى يتأهب للقدوم على مولاه، فيتجرد من ثياب زينته ويتلفظ بثياب العبودية المحضة إزاراً ورداء، بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب. ثم يهل بعد الصلاة بنسكه من حج أو عمرة، قارناً ذلك بالتلبية: لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك -

إصلاح العقيدة هو المنطلق لكل إصلاح

فضيلة الدكتور/محمد خليل هراس

رحمه الله

فالسُّلُوكُ والعمل يتبعان العقيدة كما تتبع النتيجة المقدمة أو كما يتبع الفرع الأصل، وهل يمكن أن يستقيم التابع دون استقامة المتبوع إن الوجودي مثلاً وهو يؤمن بحق الإنسان في الانطلاق وراء غرائزه وشهوته دون قيد يقيد حركته أو يحد من تصرفه لا يمكن أن يكون سلوكه إلا تمرغاً في الوحل وتلطخاً بالأقذار، ولا سلسلة متصلة الحلقات من الأعمال الدنيئة والتصرفات القذرة اللثيمة.

وإذا تقرر أن العقيدة أصل العمل ومبدؤه، وأنها له كالطاقة للألة فلا بد لنا إذا أردنا بناء مجتمع فاضل نظيف تسوده العدالة وتحكمه الفضيلة وتخفي منه الجريمة وتظله الطمأنينة ويتعاون أفرادها على كل ما فيه صلاحه وخيره فلا بد من تأسيسه على عقيدة صحيحة تكون هي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،

وبعد:

فإن إصلاح العقيدة وتطهيرها مما ران عليها من المفسد والأوضار الدخيلة وإزالة ما لحقها من التواء وتعقيد والرجوع بها إلى بساطتها الأولى قبل أن تتدخل فيها الآراء وتتنازعها الأهواء يجب أن يكون هو القاعدة الرئيسية التي تركز عليها كل دعوات الإصلاح؛ إذ بدونها لا يمكن أن يستقيم عمل أو يصلح سلوك.

إن من المعلوم بالبديهة أن كل عمل أو تصرف بدني لا بد أن تسبقه فكرة تكون هي الباعث على إرادته والمحرك لتحصيله وإنجازه.

وأنه كلما كانت الفكرة سليمة واعية كان ما ينتج عنها من العمل أو السلوك سليماً مستقيماً. وكان كذلك أخلاقياً فاضلاً.

وبالعكس؛ كلما كانت الفكرة سقيمة منحرفة موهلة في الوهم مغرقة في الضلال كلما نتج عنها سيئ السلوك وفساد الأعمال.

“ إذا كانت الفكرة
سليمة واعية كان
ما ينتج عنها من
العمل أو السلوك
سليماً مستقيماً،
وكان كذلك
أخلاقياً فاضلاً. ”

إلى رأي سقيم أو جدل عقيم.
وهم الذين لم يتلاعبوا بالنصوص
بالتأويل والتحريف، بل أخذوا بما
دلت عليه من معان مع التسليم
للله فيما وراء ذلك من الحقائق
والكيفيات التي لا سبيل للعقول
إلى معرفتها.

إن العقائد الإيمانية موجودة
بمسائلها ودلائلها في القرآن الكريم
والسنة المطهرة لأن الله عز وجل
إنما أنزل القرآن ليعلّمنا الإيمان،
وأنزل السنة للتوضيح والبيان، ففي
الكتاب والسنة الكفاية والشفاء،
ومن لم يستعن بهما فلا أغناه الله،
إن الله عز وجل لم يكلنا في معرفته
وتوحيده وغير ذلك من العقائد التي هي أصل
الدين، وأساس اليقين، إلى قياس العقل ونظره،
وجدله وسفسطته، فإن هذه أمور غيبية لا
سبيل إلى إدراكها بالعقل وحده بل لا تؤخذ إلا
من الوحي المعصوم، ولا وظيفة للعقل فيها إلا أن
يفهم فقط ما دلت عليه النصوص، وليس له أن
يبتكر من عنده شيئاً.

ولهذا لما عول المتكلمون والفلاسفة على عقولهم
وحدها، ونَبَذُوا النصوص وراءهم ظهرياً
ضلوا ضلالاً بعيداً وظهر في حججهم التهاافت
والاضطراب.

لقد كانت العقيدة الإسلامية قبل بزوغ الخلاف،
وظهور الفرق والمقاتلات، تتسم بالبساطة
والوضوح في قوة وجلالة، ولهذا كان يدركها كل
الناس على تفاوت ما بينهم في درجات الذكاء
والمعرفة، وكان يستوي فيها البدوي راعي الشاة
مع أساطين العلم وجهابذته.

فلما جاء هؤلاء المتكلمون المتنازعون أزالوها عن
بساطتها حين أقحموا العقول في ميدانها ولم
يكتفوا فيها بما جاءت به النصوص الصريحة،
لقد جنى هؤلاء الجدلّيون على العقيدة حين
أخضعوها لسلطان عقولهم وأنزلوها إلى معترك
أفهامهم، فأنزّلوها من علياء قداساتها إلى ميدان
الجدل الكريه، وصاروا يلعبون بها كما يلعب

الدعامة لذلك البناء، والعقيدة
السليمة ليست ضرورية لبناء
المجتمع فقط، بل هي ضرورية
أيضاً لبقائه سليماً قوياً مترابطاً
لا تزعزعه الكوارث ولا تنال منه
المحن ولا تفسده المغريات والفتن،
ولا تفت في عضده العقبات
والمعوقات، وأنه مما لا مرأى فيه
أن الإسلام العظيم منهج رباني
متكامل تقوم شرائعه وأحكامه
على قاعدة عريضة من التصورات
والعقائد الإيمانية فهي منها
بمنزلة قطبي الرحا تدور كلها
حولها، وترجع في مسيرتها إليها،
ولا يمكن أن يستقيم منها حكم

أو تشريع إلا إذا كان مؤسساً على تلك القاعدة
الإيمانية، فهي التي تعطيه صفة الالتزام،
وتجعله واجب الطاعة والاحترام، لهذا كان
الإيمان بالله وتوحيده أول ما تدعو إليه الرسل
عليهم الصلاة والسلام، ولقد مكث نبينا صلى
الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عاماً لا هم له
إلا تأسيس العقيدة، والدعوة إليها، وإرساؤها في
قلوب أصحابه.

فلما هاجر إلى المدينة وبدأت آيات التشريع
والأحكام تنزل متتابعة وجدت القلوب المؤمنة
مستعدة لتقبلها والاذعان لها.

ولكن كيف يتم إصلاح العقيدة؟

إن الإصلاح المنشود لا يمكن أن يتم إلا بإزالة هذا
الركام الهائل من التصورات الفاسدة الجاثمة
على صدر العقيدة، والا إذا تطهرت العقول من
تلك الرواسب العظيمة التي خلفها علماء الجدل
وأورثوها للأجيال من بعدهم وضمنوها كتبهم
التي لا تزال تدرس في معاهد المسلمين ومدارسهم
فصرفتهم عن عقيدة الكتاب والسنة.

إنه لكي يتم هذا الإصلاح المنشود لا بد من
العودة إلى ما كان عليه الصدر الأول من الصحابة
والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم فهم الذين
اتبعوا ولم يبتدعوا، وهم الذين أخذوا عقائدهم
من الكتاب والسنة رأساً ولم يرجعوا في شيء منها

الأطفال بالكرة حتى أزالوا تأثيرها على النفوس، وجلالها في القلوب.

من أجل هذا أيها الإخوة كان اختيارنا لمذهب السلف أساساً لدعوتنا، وقاعدة لإيماننا لأنه المذهب الذي يقوم على أعمال النصوص واحترامها حين تقوم المذاهب الأخرى على تعطيلها وإهمالها.

لقد اخترنا مذهب السلف لأنه المذهب الوسط الذي لا يجنح أبداً لا إلى إفراط ولا تفريط.

فهو في باب الصفات والأسماء وسط بين إفراط المشبهة الذين غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه، وبين تفريط المعطلة الذين غلوا في التنزيه، حتى وقعوا في التعطيل.

وكذلك وسط في باب الإيمان بين غلو الخوارج والمعتزلة الذين أخرجوا مرتكب الكبيرة من دائرة الإيمان، وبين تساهل المرجئة الذين يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية.

وهم في باب القدر وسط بين المجبرة الذين غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا قدرة العبد على فعله، وبين القدرية الذين جعلوا العبد خائفاً لفعله،

وهكذا في كل باب من أبواب العقيدة لا تجد مذهب السلف إلا وسطاً بين طرفين، وحقاً بين باطلين.

ومن أجل هذا أيها الإخوة يجب أن نعمل جاهدين على إحياء مذهب سلفنا الصالح، وندعو إليه بكل ما نملك، ونأخذ به أمتنا إيماناً منا بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وإيماننا منا كذلك بأن هذه الأمة لو عادت إلى عقيدتها الأولى في بساطتها وقوتها وأسست عليها كل أعمالها وسلوكها في الحياة، فإنها لا تغلب أبداً وسيعود إليها مجدها

الغابر وكرامتها السليبية، فإن الله عز وجل يقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يُقُولُ حَتَّى يَبْعَثَ مَا أَرْسَلَهُ﴾** (الرعد: ١١)، إننا على يقين من أن العقيدة الصحيحة هي الأساس الأول لكل إصلاح، وأن معظم الانحرافات في السلوك والأعمال التي نعاني منها الآن ليست إلا نتاجاً حتمياً لفساد الاعتقاد وثمرته، فإن شجرة الحنظل لا تثمر إلا الثمر المر الكريه، وكل إناء ينضح بما فيه.

لا يجوز أيها الإخوة أن تنتظر من عقائد فاسدة ملتوية أن تثمر لنا أعمالاً صالحة وأخلاقاً كريمة، فإن الظل لا يستقيم طالما العود أعوج، إن العقيدة هي عمل القلب، والقلب كما نعلم هو أمير البدن، فإذا امتلأ القلب بالعقيدة الصحيحة والمعاني الكريمة استقامت له كل الجوارح والأعضاء فصدر عنها كل سلوك فاضل وكل عمل شريف، وصدق الرسول الكريم حيث يقول: **«ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**.

إن العقيدة هي الطاقة الحرارية التي تدير الجهاز الإنساني كله، فإذا كانت طاقة معتدلة سار الجهاز كله في أمان وانسجام، أما إذا طغت وزادت عن الحد أحرقت الجهاز، وكذلك إذا خبت وضعفت توقف الجهاز.

إن الناس يلوموننا على اهتمامنا بالتوحيد وقضايا الإيمان، ويزعمون أن هناك من المشاكل والقضايا ما هو أجدر بالعناية والاهتمام، ولكننا نقول لهم: إن حل هذه المشاكل كلها رهن بفهم الأمة لدينها الصحيح وعقيدتها الحققة، وإن أي علاج لهذه المشاكل بدون إصلاح هذا الأصل سيكون علاجاً فاشلاً أو موقوتاً.

والحمد لله رب العالمين.

“
إن الإصلاح
المنشود لا يتم إلا
بالعودة إلى ما
كان عليه الصدر
الأول من الصعابة
والتابعين، وأئمة
الهدى من بعدهم.”
”